بيكا- بوو

وقصص أخرى

إيهاب مدحت

بيكا - بوو وقصص أخرى / قصص

إيهاب مدحت
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
إيهاب مدحت
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٥٤٤
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٠٦- ٣

بيكا – بوو

وقصص أخرى

قصص

إيهاب مدحت

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء،،

إلى

أمي وأبي..

دائما أحتاج لمزيد من دعواتكم..

تقديم

القارئ الكريم

أخي العزيز إيهاب...

سعدت بقراءة المجموعة وسعدت أكثر بتميزها وتفرّد أفكارها عن الكثير مما يُكتب اليوم ... تشويق وترقب، كشف وتحليل ونهايات تعطي مساحة لخيال القارئ... خليط لا تملك أمامه إلا أن تحييه وتشجعه على كتابة المزيد .. لن اتطرق إلى جماليات أو فنيات سلباً أو إيجاباً ... فقط سأدعوكم جميعاً إلى القراءة واكتشاف نفس العوالم التي استكشفها لنا إيهاب وقدمها هنا .. على الورق..

د. تامر لقمان

دكتوراه في الأدب المقارن

جامعة عين شمس

الأمل شيء جيد .. ربما من أفضل الأشياء..
والأشياء الجيدة لا تموت أبداً!

ستيفن كينج

كل نعمة يتم تجاهلها .. تصبح نقمة.

باولو كويلهو

حاول أن تكون إنسان.. حاول!

أ.م

مقدمة الكاتب

حاولت أن أكون صادقا وأنا استمع إلى كل شخصية في هذا الكتاب تروي لي عن قصتها. في كثير من الأوقات فاجأوني بتصرفاقم سواء كانت ايجابية أو سلبية.

لكني استمتعت بالإصغاء واستمتعت أكثر بنقل هذه الرحلة إليك عزيزي القارئ.

أتمنى أن تقضي وقت ممتع بين طيات هذا الكتاب كما قضيت أنا في كتابته.

إيهاب مدحت

بيكا- بوو

انا هستخبى وانت دور عليا!!!

بيكا- بووو!!!

......

قضت سالي اليوم بطوله عند الكوافير.. صففت شعرها وتزينت.. شعرت أنها مازالت بالفعل امرأة جميلة. حاولت أن تتذكر آخر مرة ذهبت فيها إلى الكوافير و تعجبت . لقد كانت منذ خمس سنوات؟! نعم قبل خمس سنوات في صباح مثل صباح هذا اليوم بالضبط.. قبل أن تودع زوجها في المطار وهو ذاهب للعمل في أحد الدول العربية.وقد كان مرَّ على زواجهم سنة واحدة فقط.. بعدها حصل على تلك الفرصة، ووعدها بأنه سيبذل قصارى جهده خلال سنة أو سنتين بالأكثر حتى يتحصل على مبلغ مناسب لترميم وتجديد شقتهم الخاصة التي ورثتها عن أبيها، ولشراء سيارة صغيرة ليقضوا بها مشاويرهم..

مرّت السنة، وأخبرها أن المبلغ الذي ادخره لن يكفي لما خطط له..لكن إجابتها له كانت أن وجوده هنا بجانبها أهم من أموال العالم كله.. لكنه طلب منها أن تصبر.. ربما لعدة أشهر أخرى..

أكمل سنتان .. كل شهر بعذر.. سئمت من طول الانتظار.. بدأت تشحب.. تهمل في نفسها.. فهي لم تعش كعروس إلا لأثنى عشر شهراً فقط.وكانت ترجاه مرات عديدة أن يترك كل شيء وأن يعود.. إنها تشعر بوحدة فظيعة.. وحالتها النفسية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.. ولكنه كان يتجاهل كل هذا و يتهمها أنها مدللة .. وإن عليها أن تصبر " فات الكثير وما بقي إلا القليل".. فكانت تقول لنفسها.. نعم لقد أصبحت فعلا بقايا فتاة جميلة مرحة ... متزوجة!!

حاولوا خلال أول سنة من زواجهم الإنجاب. لكن بدون نتيجة.

ثم قرروا الذهاب إلى المتخصصين. وأثبتت التحاليل أنها سليمة وأنه يعاني من ضعف في الحيوانات المنوية. يومها اسودت الدنيا في عينيها.. لكنها كتمت أحزانها في صدرها

وبكت بداخلها فقط ، لم تحاول أن يبدوا عليها أي شــيء.. فهي لا تريد أن تجرح مشاعره أو رجولته.

وبكل حنان ربتت على كتفه بعد أن خرجوا مــن عيــادة الدكتور وقالت له " حبيبي .. أنت عندي بالـــدنيا.. وكفايــة إنك تكون جنبي.. أنا مش محتاجه غيرك .. وكل شيء بيــده سبحانه وتعالى".

لكن في معظم الليالي كانت وسادتها دائماً مبللـــه .. تنــام والدموع في عينيها.. خصوصا أن زوجها بدأ يتغير. أصبح حاد المزاج .. دائماً ينهرها لأتفه الأسباب وكأنه كان يعوض ذلك الضعف في إهانتها وإذلالها رغم تفانيها في إرضائه.

قررت أن تعمل معلمة في رياض الأطفال، ربما تهدأ عاطفـــة الأمومة بداخلها عندما يتسنى لها أن تراهم و تداعبهم كل يوم. وبالفعل .. عوضتها عن جفاء زوجها وهجرهِ لها في الفـــراش لأسابيع عديدة حتى جاءت فرصة السفر.

يومها..توسلت إليه ألا يتركها.. فهي يتيمـــة الأب والأم. وعلاقتها مع أصدقائها محدودة للغاية .. ربما تكون معدومـــة.. لكنه تحجج بالشقة والسيارة والنقود. وقالت لـــه أن مرتبـــها ومرتبه كفيلان بدفع الإيجار و تلبية احتياجاتهم بل أنها أعطـــت

له مسودة لميزانية البيت ستمكنهم حتى من ادخار مبلغ معقول كل شهر. لكنه كان قد أخذ القرار.. أخذه بلا رجعة.

وسافر.

....

الوحدة هي أصعب إحساس ممكن أن يشعر بـه المـرء... والأسرع في تدميره!؟

....

وبعد أن كان يتصل بها كل يومين .. أصبحت مكالماته مرة كل أسبوع ثم تحولت الى مكالمة واحدة كل شهر.. حاولـت سالي أن تعتاد على حياتها تلك.. ولكن ما من إنسان طبيعـي يمكنه أن يعتاد على الوحدة ، فزملاؤها في المدرسة يبـدعون في ممارسة حياتهم اليومية بعد انتهاء الدوام . لكنـها بعكـسهم.. الساعات القليلة التي كانت تقضيها في مدرستها هي كل حياتها اليومية.

وما أطول الساعات التي تقضيها في البيت ، منعزلة علـى كرسيها.. في يدها ريموت التلفاز تنظر إلى ساعة الحائط كـل عدة دقائق .. وصوت التلفاز يملأ البيت. هي لا تنظر إليه ولا تتابع ما يعرضه ولكن فقط لتسمع أي صوت يقطع سـكون المترل.

في بعض الأحيان كانت تسمع وقع أقدام تأتي مـــن غرفـــة نومها. أو طَرقات خفيفة على باب الشقة، لكنها كانت تحاول أن تُقنع نفسها أن كل تلك الأصوات مجرد تخيلات في رأســـها بسبب عدد ساعات النوم القليلة التي كانت تنامهـــا. بعـــدها كانت تترك صوت التلفاز عاليا ليغطي على أي صوت؟! حتى أثناء نومها في العادة الذي يبدأ بعد أن تصلي الفجـــر وتظهـــر الشمس فى الافق. تكون وقتها قد تعبت من الحملقة الى الساعة بعقاربها البطيئة وتسقط على الفراش.

لكن حياة سالي تغيرت بعد أن التقت بملاك!

نظمت المدرسة في يوم اليتيم العربي الذي يوافق أول جمعـــة من شهر ابريل كل عام رحلة لزيارة أحد دار الأيتام في نفس المنطقة التي تقع فيها مدرستها بحي مدينة نصر.

وقتها لم يكن يتجاوز عمر ملاك الثالثة. بشعرها الأسود الثقيل وعينيها العسليتين الواسعتين.

التي سرعان ما إن سحرت سالي ، شعرت نحوها بإحساس غريب جديد لم تشعر به تجاه أي طفل آخر في دار الأيتـــام أو حتى في المدرسة مع طلابها التي تزيد معرفتها بهم عـــن العـــام. والغريب ايضاً أن ملاك تعلقت بها هي أيـــضاً لدرجـــة أنهـــا أحاطتها بيدها الصغيرة حول عنقها و لم تتركها طوال وجودها

في الدار. وعندما حان وقت الذهاب بكت ملاك بشكل أثار دهشة مربيتها حتى أنها استغربت عندما صاحت على سالي "ماما" . لأنها حسب كلام مربيتها لم تقل لها – أي للمربية- هذه الكلمة من قبل مع العلم أنها في الدار منذ أن كان عمرها أيام. بالطبع لم تتمالك سالي نفسها هي الأخرى وأخذت تجهش في بكاء حار . لم تنم في هذه الليلة.. أخذت تفكر في ملامح ملاك.. أنها فعلا ملاك قد أرسلها الله لها.. وصلّت ركعتين شكر لله ونامت كأنها لم تنم منذ زمن. نامت وكأن ملاك نائمة في أحضانها.

ولأول مرة كانت متشوقة أن ينتهي دوامها لتذهب مسرعة إلى ملاك. اشترت لها ولكل الأطفال الموجودين معها في غرفتها الكثير من الحلوى و الشوكولاتة حتى مربيتها جلبت لها قميص للنوم هدية. وفي اللحظة التي رأتها ملاك تدخل غرفتها كانت تقف بكلتا يديها مفتوحة. وأسرعت ترمي بنفسها في أحضان سالي ثم أسندت رأسها على كتفها و لم تفتح فمها بأي كلمة.

اعتادت سالي أن تذهب إلى دار الأيتام كل يوم بعد انتهاء دوامها . واعتاد الأطفال على انتظارها هي و الحلوى التي تحضرها معها كل يوم. لكن علاقتها بملاك زادت بشكل لم تتوقعه هي الأخرى. كانت لا تفارقها طوال تواجدها من

الساعة الواحدة وحتى انتهاء موعـد الزيـارات في السـاعة الخامسة. وعرفت أن أحدهم قد وجدها تبكى و ملقاه تحـت كوبري في غمرة ملفوفة بقطعه من القماش المهترىء وعمرهـا ربما ساعات قليلة!! اتى بها هذا الرجل الى الدار. لكن ملاك لم تكن كباقي الأطفال. لقد توقفت عن البكاء فورا بعد وصولها للدار. توقفت تماما. لم تعد تبكي على الإطـلاق. حـتى اذا كانت تشعر بالجوع او بالظمأ او متضايقة من حفاضتها فإنهـا لم تكن تبكي... فحصها طبيب الدار الذي اكد انها سـليمة تماما ولا يوجد فيها اي شيء يدعو للقلق.

لكنها كانت الحالة الوحيدة في تاريخ ممارسته للطب. وذكر لهم انه في الماضي اثناء عيش الإنسان الأول في الغابات لم تكن الأطفال تبكى حينها. فلو بكت ستعرف الحيوانات المفترسـة مكانها وستكون وجبة عشان طريه وشهية.. لكنه صعب عليه تفسير عدم بكائها؟

وحكت المربية لسالي عن أن ملاك كانت دائمـاً متروية تلعب لوحدها بعروستها الوحيدة. لم تكن تثير المشاكل مـع الآخرين أو تخطف منهم ألعابهم . كانت مطيعة جـداً علـى عكس باقي الأطفال. ومنذ أن كان عمرها عامان وقبل مجـيء وقت النوم. تنسحب بهدوء إلى سريرها و تغطي نفسها و تنام

في ثواني. ولا يزعجها صرخات أو كلام بـــاقي الأطفـــال في الغرفة.

لكن المربية حكت حكايتان غريبتان عاصـــرهم بنفـــسها. حكايتان أغرب من قصة عدم بكائها. حدث في يوم من الأيام وبعد أن نام الجميع واطمأنت المربية على جميع الأطفـــال في أسرّهم كعادها كل يوم بعدها خرجت من الغرفـــة وأغلقـــت الباب عليهم بالمفتاح من الخارج. فهناك حمام خاص بكل غرفة حتى لا يحتاج الأطفال للخروج من غرفتهم وكـــإجراء أمـــني. لكن هناك زر جرس للطوارئ متصل بغرفة المربيـــات إذا أراد أي طفل لأي سبب ما استدعاء إحدى المربيـــات للغرفـــة .. وجميع الأطفال يعرفون مكان هذا الزر..

الدار مكونة من ثلاثة طوابق في كل طابق أربـــع غـــرف متقابلة. كل مربية مسئولة عن غـــرفتين. حـــدث في يـــوم أن احدى المربيات نسيت أن تغلق الغرفة التي تقع أمام غرفة ملاك والتي يتشارك فيها خمسة أطفال . في تلك الغرفة كانت تنـــام شهد المعروف عنها أنها تمشي في بعض الأحيان أثناء نومهـــا. وفي تلك الليلة فتحت شـــهد ذات الـــسبعة أعـــوام البـــاب و توجهت إلى نهاية الردهة حيث يقع السلم ، مشيت نحـــوه بدون أن تدري و سقطْتُ متدحرجة عليـــه مـــن صـــدمتها

وخصوصا أن رأسها قد انفتح وبدأت تخرج الـدماء منـه لم تستطع أن تبكي. ولولا ملاك لكانت حدثت لها مـضاعفات خطيرة بل وصدمة عصبية عنيفة حسب كلام الدكتور.

الذي حدث أن المربية سمعت طَرْق خفيف علـى بـاب غرفتها، في البداية اعتقدت انها تحلم ولكن الطّرق ازداد عنفـاً ولما فتحت الباب لم تجد أحد. وعندما حاولت أن تغلق الباب وجدت من أوقفه ، نظرت إلى الأسفل فوجدت ملاك تقـف أمامها . بالطبع انتابها الذعر عندما وجدتها فغرفة المربيات تقع في الطابق الاول و لم يسبق أن ذهب إليه أي من الأطفال بل ما أثار ذعرها أكثر أنها متأكدة أنها قد أغلقت باب غرفة مـلاك بالمفتاح.

كلمة واحدة أخذت ترددها ملاك علـى وتـيرة منتظمـة وكأنها روبوت آلي " شده شده شده" . لم تفهم المربيـة مـا تريده. وحملتها لتذهب بها إلى غرفتها. وأطرافها كلها ترتعش. كيف تمكنت تلك الصغيرة من الخروج من غرفتها وكيف و ما الذي أتى بها إلى هنا. و في طريقها وجدت المربية شهد ملقـاة على الأرض، ورأسها تنزف ، حينها قالت ملاك مرة أخـرى "شده شده شده" ففهمت انها كانت تقصد شهد. وأنهـا قـد أتت إلى غرفتها لتجلب المساعدة للمسكينة شـهد. وعنـدما

صعدت بها إلى الطابق الثالث لتعيدها إلى غرفتها... وجـــدت الباب مغلق بالمفتاح؟!

الموقف الثاني الذي حكته المربية لسالي قد حدث منذ أسابيع قليلة. فقد اختفى التليفون المحمول الخاص بالمربيـــة. وأخـــذوا جميعاً يبحثون عنه في كل مكان لكن دون جـــدوى. إلا أنهـــا فوجئت بملاك تفتح حقيبة المربية ثم تُعيدها منذ عدة أيام. وقبل أن تصيح المربية فيها بأنه "عيب أن تفتحـــي شـــنطة أحـــد" أخرجت ملاك التليفون بهدوء من الحقيبة وسلمته للمربية الـــتي لم تصدق من هول المفاجأة واعترفت تلك المربية أنها هي الـــتي سرقت التليفون وأقسمت أنها لن تكرر فعلتها وإنها فعلا بحاجة لهذا العمل. فسامحتها المربية.

لكنها لم تكن لتفوت فرصة للانتقام من البنت الصغير ذات الثلاثة أعوام التي فضحت أمرها، فمـــا إن وجـــدت نفـــسها بمفردها معها بدون المربيات الأخريات حتى أخذت تسبها بـــل ورفعت يدها لتهوى بها على وجه ملاك لكن يدها تسمرت في الهواء ولم تتحرك؟! تماما كأنها تمثال شمعي أو لقطة من صورة فوتوغرافية إلى أن شعرت بألم شديد في يدها وأسرعت تغـــادر الغرفة وهي تتألم.

واختفت تلك المربية ولم تعود مرة أخرى للدار.

لكن كل تلك الحكايات لم تؤثر إطلاقا على حب سالي لملاك ، بل زادت من تعاطفها لها على عكس باقي المربيات الأخريات في الدار اللاتي كانوا يخشون في بعض الأوقات الاقتراب منها خصوصا... في الليل.

أصبح لحياة سالي معنى جديد، معنى آخر عوضها عن هجر زوجها وعن قسوة والدها وأمها في طفولتها، عوضها عن ساعات الوحدة التي كانت تعيشها كل يوم بلا أي هدف سوى مراقبة الساعة الموضوعة على الحائط حتى تشرق الشمس وتنام هي لعدة ساعات.

ولكن الأربع ساعات التي كانت ترى فيها ملاك لم تكن كافية لتشبع منها. فصلّت صلاة الاستخارة في إحدى الليالي وناجت ربها بأن يكون لها نصيب في تربية ملاك. لكنها قررت ألا تخبر زوجها عن تلك الفكرة ؛ لسببين أولهما أنها كانت متأكدة بأنه سيعترض عليها و السبب الثاني أنهم أصبحوا يتحدثون في الهاتف مثل الغرباء ، مرة كل شهرين أو ثلاث. حتى أنها عرضت عليه في إحدى المرات أن يطلقها . فهو غائب عنها الآن لأكثر من سنتين . لكنه نصحها أن تستغفر الله و أن تصبر و أنه " فات الكثير وباقي القليل؟!!"

وفعلا في اليوم الثاني جلست مع مديرة الدار وأخبرتها عن نيتها أن تتبنى ملاك ، وأنها ستكون بمثابة ابنتها..بل أنها فعلا

شعرت خلال الأسابيع الماضية أنها ابنتها، وأخبرتها المديرة أنهم سيقومون بالسؤال عنها أولاً، ثم ستكون هناك بعد ذلك جلسة داخلية لأخذ القرار ، وافقت بالطبع وأخذت تفكر في اليوم الذي ستأتي فيه ملاك للعيش معها حتى إنها بدأت في إعداد غرفة خاصة بها في الشقة كانت مغلقة من قبل ، واشترت سرير أطفال ودولاب مزيّن عليه شخصيات ديزني والكثير من الدمى والألعاب الأخرى.

وجاءت الموافقة وفرحت سالي بهذا اليوم أكثر من فرحتها بيوم زواجها. لقد تحقق الآن حلمها بأن يكون لها طفلة جميلة ترعاها حتى لو لم تكن من صلبها.

كانت لا تنام إلا بين ذراعيها ولا تفارقها ولا ثانية واحدة. حتى عندما كانت تذهب إلى الحمام كانت تقف بالخارج بجانب الباب تنتظرها. وبدأت تُكوِن بعض الكلمات مثل " عاوزه — دي — جميلة — و كلمة أخرى سمعتها في التلفاز على قناة ام بي سي ٣ " بيكا - بوو".

مع الأيام، نسيت سالي الحكايات التي قصّتها المربية لها عن ملاك في الدار.. لكن تلك الحكايات غَزَت ذهنها في مرة واحدة في ذلك اليوم عندما لاحظت شيئا غريبا، وجدت أن ملاك تنفذ لها ما تريد قبل حتى أن تفتح فمها لتطلبه؟! ، مثلا

إذا كانت تريد منها أن تخفض صوت التلفاز. وجدتها تمسك بجهاز التحكم وهي تنظر إلى وجهها بينما تتولى أصابعها خفض صوته ، أو إذا كانت تريد أن تأتي لها بكوب من الماء تجدها فجأة واقفة أمامها تمسك في يدها كوب من الماء نصف بارد تماما كما تحب أن تشرب ماءها. بل أن الأمر تطور حيث وجدتها مثلا تقف أمام الباب عندما يكون أحدهم قادم و ذلك قبل أن يَطرُق على الباب بخمس دقائق لتفتح له. وكذلك الحال مع التليفون فتجدها تعطي التليفون إلى "أمها" قبل أن يرن. وعندما تمسك بالتليفون يبدأ في الرن؟!

وحدث أنه في يوم من الأيام وأثناء تنظيف سالي للشقة. ومسحها الغبار من على إحدى الطاولات ضربت يدها إناء الزهور فطار في الهواء وقبل أن يرتطم بالسيراميك على الأرض نظرت ملاك اليه فوقف في الهواء لعدة لحظات و عندما رأت سالي ذلك نظرت إلى ملاك وشهقت فأزاحت نظرها عن الإناء فوقع على الأرض في الحال وانكسر. وأكملت هي اللعب بدميتها. لم تصدق سالي ذلك وحاولت أن تكذب عينيها. إلا أن الأمر تكرر بعدها بصورة أوضح.

كانت ملاك مع سالي في المول لتشترى لها بعض الملابس الجديدة قبل العيد. المكان كان مزدحم بالناس. وأثناء انشغالها باختيار بلوزة لها وضع أحد اللصوص يده في حقيبة يدها.

وقبل أن يخرج يده من الحقيبة تسمرت مكانها وأخذ يشعر بألم شديد في رسغه وكأن أحدهم يضغط عليها مما جعله يصرخ وسط الناس واتجهت جميع الأنظار نحوه و صرخ احدهم "حرامي" وامسك به الأمن. حينها نظرت سالي إلى ملاك فوجدتها تحدق بعينيها العسليتين إلى يد اللص. لكنها في ذلك اليوم ولأول مرة أصابتها حمى شديدة وأسرعت بها إلى المستشفى في منتصف الليل ودرجة حرارتها تتعدى ال٤٠ درجة. إلى أن أعطاها الطبيب حقنة هدأت من تلك الحمى.

تعايشت سالى مع قدرة ملاك. فالبنت غير بقية البنات . لكن ذلك لم يغير شيء من حبها لها . رغم أنها في بعض الأحيان يصيبها بعض الذعر من تلك القدرة او "الهبة" كما تطلق عليها خصوصاً بعد أن رأت ملاك تلك اللعبة على شاشة التليفزيون و التي يطلق عليها : "بيكا - بوو؟!"

ذهبت ملاك إلى أمها وأخبرتها بصوتها الرقيق:

- ماما أنا عاوزه ألعب معاكي لعبه؟! أنا هستخبى وأنت دوري عليا ...

بعدها رأتها تذهب لتختبئ تحت طاولة الطعام فتظاهرت أنها لا تراها وأخذت تظهر لها بأنها تبحث عنها خلف الأبواب و تحت الكراسي وهي تنادي عليها .. ولكنها فجأة وجدتها تقف خلفها و تقول بابتسامة " بيكا - بوو... معرفتيش مكاني

" هوى قلب سالي إلى الارض فهى قد رأها وهي تختبئ تحت الطاولة ومن المستحيل أن تكون خرجت من تحتها بدون أن تشعر بها لكنها بطريقة ما وجدتها تقف خلفها.

ولأول مرة منذ أن انتقلت ملاك للعيش مع سالي تصرخ في وجهها معاتبة:

– ملاك .. متخضيش ماما كده تاني ؟!!

لم تفهم ملاك لماذا نهرتها أمها لكنها مشت بخطوات سريعة إلى غرفتها وأغلقت الباب من خلفها... بهدوء .. بدون صوت .. وبدون أن تبكي...

وأثناء مشاهدة سالي للتلفزيون رأت ملاك تخرج من غرفتها إلى الردهة بخطوات بطيئة ثابتة كأنها خطوات آلية ، ويديها الاثنتين من خلفها كأنها تخفي شيء ما. نادت عليها لم تجب واستمرت بالمشي إليها بنفس الطريقة الآلية كأنها مسحورة. سألتها ماذا تخفي وراء ظهرها. لكن ملاك اكتفت بابتسامة . وعندما اقتربت منها بعينيها العسليتين اللاتي كانتا تلمعان من الإضاءة الخفيفة في الغرفة أجابتها بصوت منخفض وبنبره آلية:

– مفاجأة!

لم تعرف سالي لماذا زادت دقات قلبها مرة أخرى بصورة أسرع وانتفضت من الرعب؟. كأن الذي كان يقف أمامها

شخص لا تعرفه يخفى آلة حادة وراء ظهـره و في اللحظـة القادمة ستهوى هذه الآلة على عنقها ، وتتناثر الدماء علـى الأريكة المخمل ذات اللون البني و المزخرفـة بزهـور ملونـة ليشكل منظر الدماء مع الزهور رسمة سريالية خالدة.

- ملاك .. في إيه ورا ظهرك؟؟

قالت وحدقة عينها تتسع :

- ماما.. أنا جبتلك هدية علـشان أنـا حـسيت إني زعلْتِك.

قالتها ملاك وهي تخرج يدها من خلف ظهرهـا بهـدوء ثم لوحت بيدها يمينا ويسارا كأنها تشير إلى أحد. وقالت:

- بيكابووووووو!

بحركة لا إرادية قفزت سالي للخلف وكأن مخلوق متوحش قد هجم عليها .. بينما تسمرت عينيها على يد ملاك في محاولة معرفة هوية الآلة الحادة التي كانت تلوح بها !

لقد كانت وردة حمراء .. وردة طبيعية للتو تم قطفها؟!

نظرت إليها بعينين تملؤهم الدهشة و الرعب قائلة:

- ملاك.. انت جبتي الوردة دي منين ؟!

- ماما أنا قطفتها ليكي من الجنينة اللي قدام عمارتنا !!

- وروحتي امتى جبتيها؟؟

- دلوقتي يا ماما جبتها عشانك.

- وازاي خرجتي للشارع والباب مقفول قدامي ؟؟

- مش عارفة .. بس أنا خرجت عادي !؟

لم تجد سالي ما تقوله لملاك فقد كانت في صدمة منعت لسانها من تحريكه كأنه التصق في اسفل فكها. فباب الشقة مغلق أمامها بالمفتاح و استحالة أن تكون قد خرجت بطريقة عادية منه .. لكن كيف أمكنها أن تأتي بتلك الوردة التي فعلا مزروع منها في الحديقة الموجودة أمام عمارتهم ..الحديقة التي تطل عليها شرفتهم من الدور الرابع!!

- ملاك.. اوعي تخرجي تاني من البيت

- حاضر يا ماما مش هعمل كدة تاني.

....

نظرت سالي إلى جسدها في المرآة ، لقد خسرت الكثير من الوزن خلال الخمس سنوات الأخيرة. ورغم أنها استعادت بعض عافيتها بعد تبنيها لملاك منذ ثلاث سنوات إلا إنها كانت متأكدة أن زوجها لن يعرفها في المطار. ولكن كلمة "زوج" رنت بصوت غريب في أذنها ؟!

حاولت أن تتذكر ملامحه. لكنها فوجئت أن صورته مشوهة في ذهنها. و لم تستغرب ذلك الإحساس لقــد مــرت خمــس سنوات على آخر مرة رأته فيها. حتى صور زواجهم أحرقتــها كلها مرة واحدة في نوبة غضب بعد مرور أول ســنة علــى سفره. تذكرت الان كيف الها كانت تجلس هائمة تستمع الى اغنية فيروز " خليك بالبيت"

خليك بالبيت هلا حبيت..

راحأاكون وحيدة ... وحدي في الليل

الله يخليك .. خليك بالبيت

خليك..

خليك ما تروح مشتاقة إليك..

خليك كتير .. حبيت عينيك..

هزت تلك الكلمات قلبها بعنف .. شعرت أنها تفتقــده .. شعرت أنها مازالت تحبه.. رغم جفائه لها.. طلبــت رقمــه .. أرادت ان تقول له هذه الكلمات .. كلمات أغنيــة فــيروز.. أرادت ان تقول له ارجع .. خليك جنبي في البيت .. أنا فعلا وحيدة.. أنا فعلا اشتاق لك بجانبي .. ارجع.. الله يخليك..

لكنه ما لبس أن سمع صوتها .. وهــي تقــول لــه هــذه الكلمات حتى صرخ في أذنها:

- بتتصلي بيا الساعة ١٢ وأنا نايم وعندي بكـرة الـصبح بدري شغل علشان تقولي الكلام الفاضـي ده ، مـش إحنـا اتكلمنا في الزفت ده قبل كدة وقلت لك مش هينفـع أرجـع خالص دلوقتي.. أنا الناس هنا في شغلي بدئوا يثقوا في وبعدين القرشين اللي حوشتهم مش هيعملوا حاجه .. مـش كـل ده اتكلمنا فيه مليون مرة واللا اللي نعيده نزيده..

وفري فلوس المكالمات دي أحسن في حاجة مفيدة. ماإنت مش لاقيه حاجه تشغلي بيها وقتك!!.

تذكرت كيف سقطت سماعة الهاتف من يدها لتهوى على الأرض ، تذكرت أنها شعرت بمن يطبق بيديه على حنجرتها... بصعوبة التنفس .. تذكرت في تلك اللحظة أنها سمعت شـيء ينكسر .. شيء يستحيل إصلاحه بعد ذلك ، تذكرت أنهـا سمعت صوت قلبها وهو ينشطر إلى نصفين !! بعدها أخرجت شريط الكاسيت وألقته على الأرض وأخذت تـدوس عليـه بقدميها الحافيتين غير مهتمة بأي ألم فآلام قلبها كانت أقوى.. تذكرت أنها أخرجت كل صورهم ، صور الفـرح و شـهر العسل ووضعتهم في حوض المطبخ ثم وقفت تشاهدهم وهـم يتحولوا إلى رماد بعد أن أشعلت فيهم النيران ..

حينها شعرت أن بعض كرامتها ردت إليها.. وتحول حبها إلى نفس الرماد الذي أخذ يتطاير من حولهـا.. وقـررت ألا تتحدث معه في هذا الموضوع مرة أخرى ابداً!!

نادت سالي على ملاك حتى تطمئن علـــى مظهرهـــا ، لا تعرف وقع المفاجأة عليه عندما يراها في المطار وبجانبها ملاك ، لم تخبره أنها تبنتها وأنها أصبحت كل حياتها. وأنها تعيش كـــل يوم من أجلها. ردت عليها ملاك من غرفتها انها آتية.. وسألتها إن كان بإمكانها ان تأخذ قطها " ماجيك" إلى المطار ؟؟ كانت متحمسة جدا للقاء " بابا" الذي أخبرتها عنـــه ســـالي مـــرات عديدة ، وأنه كيف سيكون سعيد جدا برؤيتـــها و كانـــت متشوقة ليأخذها إلى حديقة الحيوان، ومدينة الملاهي. وكيـــف أنه سيشتري لها الحلوى والأيس كريم.

أجابت سالي بالنفي وقالت لها أن "ماجيك" سيكون عليـــه انتظارهم في البيت حتى يستقبلهم عند عودتهم مـــن المطـــار.. وسمعتها تهمس للقط بهذا الكلام. والقط يجاوب بمواء خفيف!!

لا تعرف سالي لماذا ذكرها مواء القط الآن بقصته كيف أتى هو الاخر للعيش معهم وأصبح فرد من العائلة.

حدث ذلك منذ ستة أشهر عندما كانت تلعب ملاك مـــع سالي لعبة "بيكا - بوو" كما تحب أن تُسمي لعبة الاستغمائة و هي تختبئ كعادتها في أحد دواليب المطبخ.. وسالي تتظاهر بأنها تبحث عنها رغم أنها اعتادت على أنها في أوقات كثيرة تختبـــئ في مكان ثم تظهر من مكان اخر! ، الغريب أنها لم تـــسأل أي

أحد عن قدرات ملاك حتى أنها لم تفتحه مع أي أحد. كانت تخشى أن تفقد ملاك ، لقد اعتادت على وجودها لدرجة انها كانت تشعر بأنها لو كانت قد أنجبت بنتاً لن تحتل نفس المكانة التي تحتلها ملاك في قلبها.

جاءت ملاك مسرعة من خلف الباب تقول لأمها بكلمات متقطعة وهي تلهث:

- القطة... جعانة.. ضايعة.. خايفة.. القطة.. بلييييز!

لم تفهم سالي ما تقول .. فطبطبت عليها وهدأت من روعها ثم بدأت ملاك تشرح لها أن هناك قطة تشعر بجوع وعطش شديدان هربت من مالكها منذ يومين لسوء معاملته لها وانها تريد أن تطعمها شيئاً ! ، أخذت سالي الموضوع كأي أم تتحدث ابنتها عن دميتها التي تريد أن تأكل أو تشرب أو تخرج للتنزه معها فتقوم الأم بتحريك يدها إلى فم الدمية كأنها تطعمها أكل سري خفي.. فسألت سالي:

- وهي شكلها إيه القطة دي ؟؟

- بيضاء كلها لكن وشها نصه ابيض ونصه التاني اسود!

- هي فين طيب علشان نُوَكلها..

- طالعة على السلم!!!

بدأت سالي تحس مرة أخرى بنفس الرعشة التي انتابتها أول مرة فاجأتها فيها ملاك من ظهرها وهي تقول لها "بيكـــابو". وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت مواء قطة بالخارج على باب شقتهم!؟؟

في البداية شعرت سالي بالخوف حتى إن تقترب من الباب ، ناهيك على ان تفتحه وتطعم تلك القطة ، لكن ملاك أسرعت نحو الباب وفتحته قبل حتى ان تمنعها سالي.

دخلت القطة تتمسح في ساق ملاك كأنها تعرفها منذ زمن، بنفس الوصف الذي وصفته ملاك للقطة.. "بيضاء كلها لكــــن وشها نصه أبيض ونصه التاني أسود؟؟!"

لم يبدو عليها أي شيء غريب يدعو للخوف إلا أنها قطـــة وسخة أتت من الشارع بآلاف الجراثيم والميكروبات ، لكنها لم تكن قطة "بلدي" بل قطة شيرازي من النوع الغـــالي نقـــي السلالة ، كان يبدو عليها الجوع بلا شك ، ولكـــن الـــسؤال الذي ما يزال يحوم في رأس سالي هو كيف علمت ملاك بكل هذا ، اذا اختلقت رواية أنها جوعانة و قد هربت من صاحبها لسوء معاملته لها فكيف إذن وصفتها لي . بل والأدهى كيـــف علمت أنها صاعدة على السلم. بل ولماذا جاءت إلـــيهم هـــم بالذات إلى الطابق الرابع ؟؟!.

بالطبع لم تكن هناك أي إجابة منطقية لكل هذه الأسئلة ، ربما أنها مصادفة أو ربما ستكشف لها الأيام. هكذا حاولت أن تطمئن نفسها قبل أن تدلف إلى المطبخ لتأتي لها ببعض الحليب و قطع من اللانشون! .

الغريب أن سالي ألفت القطة بشكل أثار دهشتها هي نفسها. وحدث أثناء خروجها من باب العمارة أن سمعت البواب يتحدث مع أحد البوابين في المنطقة والأخير يخبره عن أحد ساكني العمارة الذي "خوفهم" بالبحث عن قطته التي هربت منه منذ عدة أيام بالرغم من أنهم كانوا يعلمون كيف كان يعاملها بطريقة- هم – أي البواب و اولاده كانوا يستاءون منها!؟

وكما هو الحال مع سالي أحبت ملاك القطة بشكل جنوني حتى أنها كانت تنام معهم على نفس السرير. كثيرا ما كانت تسمع ملاك وهي تتحدث مع "ماجيك" مثلما تتحدث أي بنت مع دميتها لكن ما لاحظته أنها أي القطة كانت تنفذ ما تطلبه منها. فمثلا إذا طلبت منها أن تنزل من على السرير ، تنزل في الحال. أو أن تأتي لها بالكرة الصغيرة التي تلعب بها. فتذهب وتأتي بها . ولكن الأغرب ان ملاك هي الأخرى كانت تفهم مواء "ماجيك"!؟ .

نادت سالي مرة أخرى على ملاك ، كلها ساعة ونصف و تصل الطائرة ، هذه المرة أسرعت ملاك إليها و شبت على قدميها الصغيرتين وهي تقول لها بأنها احلى أم في الدنيا. أما سالي فقد كانت تنظر في المرآة إلى نفسها كأنها تنظر إلى شخص غريب لا تعرفه. فهي لا تضع المساحيق ابداً ولا تذهب للكوافير فهي محجبة. وليس ذلك فقط هو السبب ولكن لمن تتزين. لقد انكسر شيء بداخلها من سنين. ولا تعتقد أن هذا الشيء يمكن إصلاحه مرة أخرى. حتى لو ارتمى زوجها في أحضانها و بكى أنهاراً من دموع الندم على سنوات عمرها التي احترقت مع رماد الصور .

إنها ذاهبة الآن لتقابل شخص غريب. شخص تركها معلقة بين السماء و الأرض. أهو حب امتلاك. ام أنه فعلا قد فعل كل هذا من أجلهم ، وعندما فكرت في كلمة "من أجلنا" شتمت نفسها لانها ولوهلة اعتقدت أنه فعل هذا من أجلهم!

فليكن ما يكن سنرى كيف ستسير الأمور ، إنه حتى لم يذكر لها إن كانت عودته أجازة لمدة شهر كما هو حال المغتربين ، أم انه قرر النزول النهائي ، هذه المرة ستواجهه ستخرج كل ما كان مختزنا في قلبها خلال تلك السنوات الخمس الماضية التي بدت لها بأنها خمسون عاما ، حتى أهله لم يكن يسأل عنها احد منهم . كأنها عار. كأنه تزوجها في السر. أو كأنها هي السبب في عدم إنجابهم!!

– بعد كل هذه الليالي السوداء التي عـــشتها، ذهبـــت إلى الكوافير لأتزين له . كم أنا مغفلة فعلاً. انا أحتقر نفسي الآن! لماذا سمحت له بإهانتي طوال تلك السنين. لماذا علقت روحـــي بيده. كان يجب أن اذهب إلى المحكمة وأطالب بخلعـــه ، تمـــام كما يخلع المريض ضرسه المسوس ، أخلعه كما يُقتلع النبـــات الفاسد من الأرض الصالحة.. لقد نخر سوسه في عظامي وكل كياني.. كان يجب ان يخلع ويلقى به في أقرب سلة مهمـــلات قذرة.

وها أنا أذهب لأتزين له. ليبتلعه الجحيم هو وأمواله .

ذهبت بخطى مسرعة إلى الحمام وفتحت الماء الفاتر وأخذت تغسل وجهها بعصبية. تدعكه بالصابون. كأنها ممثـــل يزيـــل مكياجه بعد أن أُسدل الستار على المسرح وانتهى دوره. ولكن مسرحيتها لم تسدل ستائرها بعد ، ستتحلى بالجرأة لمرة واحدة فقط في حياتها ، مازالت تستطيع استعادة كرامتها.

ستطلب الطلاق منه. ولن تسمح له هذه المرة في أن يستغل ضعفها اكثر مما فعل. ومـــاذا عـــن الـــسنوات الـــتي مـــرت كالكابوس!! كالضرب المبرح الذي يترك بقع زرقاء !!

ستنتقم منه!! لابد ان تنتقم منه !! .

وقفت في المطار تنتظر ومعها مـــلاك. بـــالطبع لم تُـــرد ان تتركها وحدها في المترل. إنها أغلى شيء في حياتهـــا . غنـــها

تعيش لها. ولماذا عليها أن تكترث لردة فعله. لماذا يجب عليها أن تراعي مشاعر الآخرين وتعمل لهم ألف حساب بينما لا يترددون هم للحظة بتشويهها بكلماتهم ، أخذت تنظر يميناً ويساراً . وجوه كلها ارتقاب . ها هي امرأة في مثل عمرها تقف بكامل زينتها تمسك بيدها طفل لم يتجاوز شهور وفي اليد الأخرى تمسك بباقة من الزهور الطبيعيةو بجانبها يقف مجموعة مكونة من عشرة أشخاص بجلاليبهم البسيطة وابتسامتهم التي توحي اليك أنهم يعيشون بلا هموم. ربما أتوا من الصعيد لاستقبال أحد أقربائهم. ممسكين بلافتة مكتوب عليها " عمرة مقبولة يا أبو حميد" . بينما يخرج البعض مباشرة إلى الخارج ليستقلوا سيارة أجرة. لا أحد ينتظرهم. وهم من الواضح عليهم أنهم لم يتوقعوا ان يكون في انتظارهم أي أحد. فكرت سالي لوهلة وقالت وهي تحدث نفسها " ماذا أفعل هنا.. لماذا أنتظره.. لقد انتظرته كثيرا .. وقضيت الكثير من الليالي أبكي بدون ان يربت أحد على كتفي.. لقد أخبرني فقط منذ عدة أيام بأنه قادم..في مكالمة كانت باردة لم تتعدى الدقيقتين.. اخبرني فيها عن ميعاد وصول الطائرة ورقم رحلتها.. بعد كل هذه السنين .. انه حتى لم يسألني اذا كنت أريده ان يجلب لي أي شيء.. أو حتى يسألني عن مقاسي جوربي أو حتى صدريتي ..وها انا أذهب لأنتظره بكل بلاهة.. ولماذا لم أرى أي أحد من أهله! فتحت حقيبتها و أخرجت الورقة الصغيرة التي سجلت عليها ميعاد الرحلة ورقمها بخط

يدها " رحلة ٣١٣ الرياض الوصول ٦ مساء " تأكدت أنها نفس الرحلة الظاهرة على اللوحة الرقمية. ربما لم يخبر أحد من أهله أنه قادم اليوم. سمعت أحدهم يسال أحد الركاب الذين وصلوا " هي دي رحلة الرياض؟" فأومأ له هذا الشخص باستعلاء. قررت أن تذهب .. ستراه في البيت.. إذا مازال يتذكر عنوانه ، استدارت وهمت أن تخرج من باب المطار .. حينها أحست بأصابع تطرق على ذراعها الأيمن. التفتت بسرعة لتهوي بكفها على ذلك الشخص .. كان يقف أمامها رجل ممتلئ وجهه كالدب بلحية كثيفة يرتدي بنطلون قماش أزرق قد رفعه لمنتصف خصره. وقميص أبيض في جيبه الأمامي قلم جاف و سواك سميك . كان الجيب يتدلى الى الامام من الأوراق المليئة به. وعرفت سالي أنه "زوجها" أيمن من الشيء الوحيد الذي لم يتغير فيه.. عينيه.

قال لها بنصف ابتسامة:

- السلام عليكم.

كانت واقفة تبحلق فيه عيناها تمسحه من أصابع أقدامه الظاهرة من النعل المفتوح الذي كان يلبسه إلى الشعيرات البيضاء التي ملأت رأسه. لم تدري ماذا تقول أو ماذا تفعل ، لم تكن سعيدة لرؤيته. تمنت أن تكون عودته مجرد دعابة سخيفة. خلفها لمحت زوج آخر يحتضن زوجته. ثم يقبل رأس حماته. بينما يعتلي عربة حقائبه التي يدفعها أمامه علبه كبيرة بها سيارة

بجهاز لاسلكي. درجة حرارتها أخذت ترتفع وزادها أن جهاز التكيف في صالة الوصول كان كالعادة متعطل. الكل يتصبب في عرقه. كرر عليها السلام مرة اخرى. هذه المرة أجابته ببرود وباختصار:

- وعليكم السلام.

- إنت مستنيه حد تاني؟

لم تبتسم حتى. كانت كأنها تقف أمام شخص غريب عنها. ٥ سنوات كفيله بأن تجعل الابن غريب عن أمه! .

ملاك كانت تقف خلف سالي عينها تراقب ولد في مثل عمرها تعلق في ساق والده يحتضنها؛ فقلدته ، تقدمت من خلف سالي إلى الامام بخطوتين سريعتين واحتضنت ساق ايمن اليمني بيديها الصغيرتان. كل هذا وايمن لم ينتبه لوجودها من الأساس. تراجع بجسده للخلف رغم وزنه الثقيل. لكنه دفعها بيده وهو يقول لزوجته مستنكراً:

- هيا الشحاته كمان وصلت عندكم في المطار!!

نزلت سالي على ركبتيها واحتضنت ملاك التي فزعت من ردة فعله.

- دي مش شحاته .. دي بنتي!!

- مش فاهم!! بنت مين!!

- لما نروح هفهمك..

- لأ أنا عاوز افهم "دلحين" !!

- و"دلحين" دي ياعني دلوقتي صح!! أنا مش هينفع اتكلم قدامها دلوقتي .. خصوصا بعد ما فزعتها كـــده!! هـــي دي شنطك؟؟

أشارت بلهجه ساخره إلى شنطه واحده صغيرة من النـــوع الذي تسمح به شركات الطيران الصعود به على الطائرة كان يسحبها من يدها معه. فأومأ لها برأسه أنه نعم.

استقلوا سيارتها "السيات" الصغيرة التي اشترتها مـــن أحـــد زملائها في المدرسة بأقساط شهرية. لم يفتح كلاهما فمه خلال الطريق سوى أنه علق على شرائها لهذه السيارة وأنه لابـــد أن دخلها قد ارتفع وان المرتبات في مصر قد تحسنت في السنوات الاخيرة!! بالطبع لم تعقب على كلامه بينما كانـــت تتفـــادى ملاك النظر إلى الامام .. حيث كان يجلس .

في شقتهم كل شيء كما تركه .. ربما تغـــيرت وضـــعية أماكن بعض الأثاث.. الذي زاد أن الشقة كانت تملؤها الكثير من الدمى والألعاب . . أخذ يجول بعينه في أنحاء الشقة بينمـــا أسرعت ملاك إلى قطتها تحملها من علـــى الأرض وتقبلـــها ثم ذهبت بها إليه فنظر إلى سالي بقرف وقال:

- أنتم مربيين القرف ده في البيت!!

- دي مش قرف دي قطه ..

- ابعدي يا بنت، انت والبتاعه اللي في ايدك دي عــني.. روحي اغسلي ايدك بالصابون

- وعلى فكرة برضه هي اسمها ملاك!!

وضعت ملاك القطــة علــى الارض... لكــن القطــة لم تتحرك... أخذت تصدر صوت مخيف وشعرها الاسود كلــه يقف كالأشواك ... وهي تنظر إلى ايمن الذي اخذ وساده من على الكرسي و رماها عليها وهو يستعيذ بالله مــن الــشيطان الرجيم!!

ذهبت ملاك لتغسل يدها ثم عادت إليه وهي ترفع يدها إليه لتريه إياها ثم قالت له :

- بابا ... انا هستخبى وأنــت دور عليــا .... بيكــا - بووووو عارفها ؟

وقبل ان يرد عليها .. ركضت الى الكرسي الذي أمامــه و اختبأت خلفه ... كان أيمن يجلس على الأريكة و سالي علــى بعد مترين منه تجلس بكامل ملابس الخروج .. حــتى الغطــاء الذي كان يغطى شعرها لم تخلعــه تنظــر إلى الارض بينمــا أخذت تهز كلتا ساقيها كأنها تهدهد طفل وساد صمت تام ...

" بيكابوووووو" سمع أيمن هذه الكلمة وكــأن أحــدهم يهمس بها في أذنه اليسرى فالتفت سريعا إلى تلك الجهة لكــن ملاك لم تكن هناك .. فهو قد رآها وهي تختبئ وراء الكرسي الذي أمامه..

"بيكابووووووووووو" سمعه هذه المره في الأذن اليمنى لكن هذه المرة كانت بصوت أطول و أبطأ ..

نظر إلى حيث الصوت مرة أخرى ورأى سالي مازالت تنظر إلى الأرض وكأنها لم تسمع هذا الصوت .. ثم صرخ وهو يركض بخطوات سريعة إلى الكرسي حيث اختبأت ملاك :

- ايه شغل العيال ده!! .. اطلعي يا بت من هنا ..

لكن ملاك لم تكن هناك .. لم تكن حيث رآها تختبئ ... لم تكن حيث كانت تنظر عينه طول الوقت ..

- بخخخخخخخخخ

فاجأته من خلفه و هي تدفع ساقه بيدها وقالت مرة أخرى وهي تضحك ضحكة مسموعه :

- بيكابووووو

انفزع أيمن فالتفت اليها لكن قدمه اليمنى ارتطمت بساق الطاولة الصغيرة الموضوعة بجانب الكرسي فصرخ من الألم وألقى بجسده الثقيل على الكرسي على القطة التي لم يرى انها كانت تجلس هناك فصرخت القطة بصوت غريب كأنها صرخة امرآة راشدة بينما مال أيمن الى الأمام بعد أن تدارك الموقف فقزت القطة من على الكرسي وأسرعت تختبئ داخل المطبخ.

ثم صاح:

- غوري من وشي ... ابعدي البت دي عني !!

قالت سالي بعصبيه وقد غضبت مرة أخرى من الطريقة التي يتكلم بها أيمن عن ملاك وكأنها خادمة تعمل لديه:

- خشي يا حبيبتي أوتك دلوقتي واقفلي على نفسك الباب.. لكن ملاك أخذت تنظر الى ايمن و تحدق الى ساقه فصرخ مرة اخرى من الألم صرخة أقوى من الصرخة الأولى وقالت سالي إلى ملاك بلهجة آمرة:

- ملاك.... دلوقتي حالا.

دخلت ملاك إلى غرفتها وتبعتها نظرات أيمن برعب إلى أن أغلقت الباب خلفها!

- أنا مش عاوز البت دي هنا !

- أظن إني قلت لك ان اسمها ملاك وقلت لك إنها بنتي !!

- بنتك يعني ايه ؟؟

- اتبنتها !

- كدا.. هو بمزاجك!! انت فاكرة نفسك عايشه لوحدك!!

- لاء عايشه مع جوزي على بعد ٢٠٠٠ كم مني !!

- اسمعيني كويس ... الوضع اتغير دلوقتي انا هنا عشانك.. وهعوضك عن كل اللي فاتك !!

- وازاي بقى ناوي تعوضني عن الليالي السودا اللي عشتها لوحدي.. وايه خططك للخمس سنين اللي ضيعتهم من عمري ... بس معلقني في الهواء .. ولا إنت معاي ولا إنـت عـاوز تطلقني!!

- استعيذي بالله من الشيطان .. طلاق ايـه اللـي انـت بتتكلمي عليه .. احنا مهما اختلفنا فأنت برضه مراتي !

- اختلفنا !!!! والله كلامك ده بيضحكني...

- بصي يا حبيبتي أنا متأكد إن كل الخلافات اللي بنـا دي هنعرف نصفيها.. الوقت متأخر دلوقت وانا جاي من الـسفر تعبان.. وانت كمان عصبيه دلوقتي.. نخش ننام وبكره يحلـها ألف حلال.. وانا يا ستي هبقي اخليك تزوريها في الملجأ ومش همنع انك تديها أي حاجه هيا عاوزاها..

- اظاهر إنك مفهمتش كلامـي كـويس... مـلاك دي بنتي.... سمعاني.. بنتي وإلا انت والا عشرة ذيـك هيبعـدوها عني...

في هذه اللحظة نهض أيمن من مقعدة وتقدم نحو سالي وهـو يقول:

- اظاهر انك نسيتي انك متجوزه راجل!

ثم رفع يده اليمنى في الهواء أمام وجهها لكنها لم تترل على خدها كما أراد.. لقد ثبتت في الهواء وكأن يدًا خفية تمسكها، وبالرغم من أنه كان ينوي أن تكون هذه الصفعة بمثابة تذكرة لها بأنه لم يفقد رجولته في الغربة لذلك وضع فيها كل قوتــه.. لكن يده ثبتت بلا حراك، ونظر هو باستغراب إلى كفه وهــو معلق في الهواء حتى إنه حاول أن يترله لكن لم يــستطع.. ولم يفهم ماذا يحدث.. لكن سالي كانــت تعلــم مــاذا يحــدث بالضبط.. حينها نظرت نحو باب غرفة ملاك فوجدته مفتوحًا، ووجدت ملاك تقف على بَعد خطوات من أيمن تحدق بعينيهــا العسليتين في يده حتى بدأ لون معصمه يتغير إلى الأزرق وبــدأ يشعر بألم فظيع.. وبصوت عظمة الرسغ وهي تنكسر.. وفتح فمه عن آخره بصرخة كأن احدهم يسلخ جلده.. ولم تتزحزح ملاك من مكانها حتى إنها لم ترمش لمدة دقيقة..

أسرعت سالي إلى ملاك وجذبتها من يدها وأدخلتها غرفــة النوم وأغلقا الباب عليهما بالمفتاح.. بينما استمر صراخ أيمــن وهو يمسك رسغه بيده الأخرى ويتلوى كالمصاب بالمس..

بعد أن عاد إليه ذهنه ذهب الى المطبخ وأخذ المنشفة وربطها على رسغه مستخدمًا يده اليسرى وفمه.. ثم فتح الثلاجة وأخذ يبحث عن أي مسكن للألم إلى أن وجد علبة فولتــارين ٥٠٠ فتحها ثم رمى في فمه ٤ حبات.. كان كل شاغله أن يتوقــف

الألم الذي كاد أن يطير رأسه وكأن أحدهم قد داس بعجلات سيارة نقل ثقيل على يده، أو كأن احدهم قد ربط يده في حلق باب حديدي وأخذ يفتح الباب ويغلقه بعنف على يده...

بعد ان هدأ الألم قليلًا حاول ان يفتح الباب على سالي وملاك.. وازداد جنونه لما وجده مغلقًا بالمفتاح، فأخذ يركل الباب بقدمه عدة مرات وهو يتوعد ويسب..

الى أن القى بجسده الثقيل على الأريكة وبدأ النعاس يداعب جفنيه... في داخل الغرفة كانت ملاك ترتعش بين يد سالي وهي تسألها لماذا يفعل أبي هكذا !! بينما اخذت سالي تهدأ من روعها وتطمئنها... لماذا نهرني عندما أردت أن ألعب معه !! ثم ولأول مرة حدث ما لم يحدث من قبل في حياة ملاك.. انسابت دمعة من عينها الصغيرة وسقطت على يد سالي... كانت دمعة حارة جدًا كأنها قطرة زيت ساخنة... لكن سالي لم تتحرك من مكانها!

لقد أسقطت الأربعة حبات من الفولتارين أيمن كالعمارة التي تنهار في لحظات.. كانت عيناه مغلقتين تمامًا، لكنه شعر وكأن شيئًا قد مر بجوار أذنه اليسرى هذا الشيء قد أحدث لسعة من الهواء البارد على خده.. لكن عيناه مسمرتين... ربما أنه التعب أو الإجهاد هكذا حدث نفسه وكأنه ضائع في حلم ما.. لكن نفس الشيء مر مرة أخرى... حاول ان يتحرك لكنه

لم يستطع... الألم في رسغه اليمنى يتلاشى قليلا ويحدث تنميله في ذراعه كلها... ثم سمع صوت يهمس له في اذنــه بهــدوء " بيكابووووو" الصوت لم يكن بشريًّا.. كان كأنه لماكينة حلاقة كهربائية تعلمت النطق... ثم همس له الصوت بنفس الكلمــة ولكن هذه المرة كان يتقطع كأن احدهم يشغله ثم يطفئه مــرة اخرى " بيكا بو بو بووووو"، ثم شعر بصفعه على وجهه من شيء بارد..كأنها صفعة من كف أحد بداخل كــيس ملــيء بالثلج، هذه المرة أجبرت عينه ان تفتح كأنها عيني بومة.. لكن كل شيء من حوله كان مظلمًا عكس ما تركه إلا من بعــض الظلال التي أخذت تتراقص على الحائط من مصدر ضوء غــير معلوم، شعر بالألم في يده يعود من جديد، وشعر بشعر يــده ينتصب كالشوك عندما لمح عينين تنظران اليه من احد أركــان الغرفة، كأنهما عينا شيطان أسود، ينبعث منهما ضوء أبــيض خافت، هما على الأغلب مصدر الظلال التي تتراقص من حوله، لكنها كانت مثبتة عليه بلا حراك... تمازج شعوره بالخوف مع شعوره بالألم مرة أخرى... وأصيبت رجلاه بالشلل.. لكــن العينين الآن كانتا تقتربان منه.. تقتربان في بطء مخيف بصوت كفحيح الأفعى.. تقتربان منه وهو لا يــستطيع أن يفعــل أي شيء... إنه الدواء.. أنا أخرف... إنه التعب.. أنا أهــذي.. ربما أنا في كابوس... إنه إرهاق السفر... لا إنه كابوس غبي.. سأستيقظ منه الآن..

"بيكابووووو.. انا هستخبى وانت دور عليا !!!!"

ردد الصوت مرة اخرى.. هذه المرة كان سـريعًا جـدًا.. يتنقل بين الأذن اليمنى واليسرى..

العينان البيضاوان أصبحتا في مستوى عينيه، وصوت الفحيح الذي أصبح كصوت الخشب الذي يحترق يعلو في أذنيه..

فجأة أضاءت الغرفة بنور قوى اضـطره أن يغلـق عينيـه وعندما فتحهم مرة اخرى وجد القط بفروته السوداء اللامعـة يقف في المكان نفسه الذي كانت تضيء منه العينان البيضاوان منذ لحظات.. أنا أكره القطط.. وأنت لن تبيتي معي في مكان واحد أيتها القطة الشيطانية.. سألقي بك في منتصف الطريق.. لتدهسك إحدى سيارات النقل... اتعتقدين أنك تستطيعين أن تخيفيني.. سألقي بك في الطريق الدائري!

دخل أيمن الى المطبخ وهو يحاول أن يحتمل ألم ذراعه الـذي لم يجد له تفسير إلى الآن أنه بالتأكيد كسر.. لقد سمع صـوت العظام.. ولكن كيف! أخذ يتسأل مع نفسه وهو يلقي بحبـتين من المسكن في حلقه.. ربما سأعرج على أقرب عيادة في طريقي إلى المترل بعد أن أتخلص من هذا القط اللعين.. وجد صـندوق زجاجات مياه معدنية مصنوع من الكرتون.. فألقي ما فيه على الارض ثم اخذه الى غرفة الجلوس.. اقترب من القـط بهـدوء وحمله بيده اليسرى وأسنده على وسـطه.. ثم ألقـى بـه في الصندوق.. كان القط مستسلمًا للغاية ولم يقاوم، على عكس ما كان يتوقع أيمن..

أين مفاتيح سيارتك الغربية يا من تدعين الفقر... ثم أخـــذ معه الصندوق وتوجه إلى حيث السيارة.. وضـــع الـــصندوق وبداخله القط في الكرسي بجانبه وأدار محرك السيارة وانطلق الى الطريق المثالي لإنهاء حياة هذا القط.. إلى طريق المطـــار... إلى الطريق الدائري!

الطريق كان مظلمًا كعادته إلا من أضواء السيارات الملاكي وعربات النقل الثقيل... بدأت عيناه تتثاقلان مرة اخرى؛ هـــل سيصاب بهبوط... لقد تناول حبات الدواء على بطن فارغـــة، ربما كانت تكفي حبة واحدة او اثنتان، لكنه كـــان يريـــد ان يوقف الألم بأية طريقة... الأضواء العالية للسيارات القادمة في وجهه كانت تصيبه بلحظات سريعة تسود فيها الدنيا من أمامه ثم تعود صورة الطريق مرة أخرى.. صوت القط وهو يخـــربش في الصندوق.. لقد نسي من غضبه ان يلصق اعـــلاه بـــشريط لاصق.. انقلب الصندوق في احد اللفات وخرج القط بهدوء.. وسمع صوت الفحيح الذي سمعه في الغرفة مرة اخـــري لكـــن الصوت الآن أقوى من قبل الصوت الآن فيه نبرة من الغضب.. نبرة من الانتقام.. في الدواسة، تعلق القط بأظافره إلى ان صعد على الكرسي بجانبه.. شعر أيمن بأن القط يحدق فيه... مجـــرد إحساس لكنه كان يمتزج ببعض الرعب جعله للحظه ينظر إلى

جانبه وفي أقل من ثانيه قفز القط من مكانه كالفهد.. قفز الى وجه أيمن وتعلق به بأظافره الطويلة!

- احتلت عجلة القيادة من يده وهو يحاول أن يبعد القط بيده اليسرى السليمة، بينما تحركت يده المسنى بحركة لا إرادية جعلت الألم يكاد يفقده الوعي، وشمت انفه رائحة عفنة من فروة القطه التي تعلقت مخالبها بجبينه.. انحرفت السيارة عن الطريق وقفزت الي الاتجاه المعاكس ولم ترى عينا أيمن بعد ذلك سوى الأضواء العالية لسيارة نقل ثقيل تتجه نحوه مباشرة ثم أظلمت الدنيا بعدها من أمامه للأبد !

....

- استيقظت سالي في اليوم التالي على صوت هاتفه المحمول التي لم تنقطع وتسألت بدهشة لماذا لا يريد ان يجيب.. خرجت من غرفتها بهدوء لكنه لم يكن موجودًا.. بحثت عنه في الشقة كلها لكنها لم تجده.. ذهبت الي حقيبة يده السوداء الصغيرة الملقاه على الطاولة واخرجت هاتفه الذي مازال يرن، نظرت الى اسم المتصل "أشرف المحامي".. ترددت للحظات ثم قررت أن تجيب.. ضغطت على زر الاجابه بدون أن تتفوه باي كلمة.. على الخط الثاني كانت هناك اصوات زحام وأشخاص كثيرين يتحدثون، ثم سمعت على الطرف الثاني صوت جهوري يقول:

- الو يا بشمهندس.. إنت لسه نايم !! اسمعني كويس علشان أنا مش سامع حاجه من الدوشه اللي حواليا.. انا

قدرت أوصل مع الراجل لسعر ممتــاز للعمــارة اللــي انــت هتشتريها بس ده كله واقف على انك تدفع كــاش ذي مــا اتفقنا... اتمنى إنك تكون قدرت تقنع المدام الها تكتب الــشقة باسمك.. أنا واقف جنبي الشاري هنا في الــشهر العقــاري.. هنخلص في بيعة الشقة وبعد كده نطلع نكمــل علــى بــاقي الفلوس اللي معاك ونخلص في العمارة.. سمعني؟؟ معلش أنا مش سامع حاجه...معلش اذا كنت ازعجتك بس انا عــارف إن وقتك ضيق وانك مسافر كمان يومين.. أوراق الطلاق كمان جهزتها.. مش هتعرف تاخذ منك ولا مليم...عيب دا انا المتر بتاعك من سنين... مستنيك في الشهر العقــاري.. هكلمــك كمان شويه من مكان أهدى.. نورت البلد يا باشا... ســلام مؤقت!

وقفت سالي وسط غرفة المعيشة في ذهول وهــي مازالــت تضع الهاتف على أذنها رغم أن المكالمة انتهت.. لكن عيناهــا تعلقت بملاك التي ذهبت لتفتح باب الشقة لتدخل بعد لحظات والقطة "ماچيك" تتمسح في ساقها لتقفز بعد ذلك من علــى الأرض لترمي بجسدها الصغير في حضن سالي وبدأت دموعها تنسال.. لكنها لم تكن دموع حزن بل دموع فرح.

حرس الريس



" ليك حق يا بيه تتريق علي..أنا ايه... أنا ولا حاجة....أنا حتى محصلتش قهوجي.. أنا.. صبي قهوجي... صبي قهوجي.. وانت الناس كلها بتضربلك تعظيم سلام.. ليك حق يا بيه!".

يتوجه أحمد عرفان في الصباح الباكر من كل يوم - ما عدا يوم الجمعة الذي يبدأ فيه العمل من الساعة ال ٤ عصرًا - من منزله الذي يقع في شارع طومان باي بحلمية الزيتون إلى مقر عمله بالقرب من ميدان هليوبوليس. في التوقيت نفسه الذي ينزل فيه جاره -الملازم ثاني- خالد النجار. غالبًا ما يتقابلون أمام باب العمارة. ويبدأ أحمد بإلقاء التحية علي خالد قبل أن يتوجه إلى سيارة الشرطة البيجو الخاصة به التي يحرص أن يوقفها أمام باب العمارة مباشرة.

وينطلق بها إلى قسم حلمية الزيتون حيث يعمل. بينما يستكمل أحمد عرفان خطواته السريعة ليلحق بالحافلة رقم ٧٠٧. يستقلها من المحطة التي تبعد عن منزلة حوالي نصف

كيلو يقطعها في ١٠ دقائق. ليتوجه بها بعد ذلـــك الي ميـــدان هليوبليس ومن هناك يمشي حوالي ٢ كيلو متر آخرين ليـــصل الى عمله في تمام الساعة ٨:٣٠.

أحمد عرفان ليس مهندس كمبيوتر في إحـــدى شـــركات البرمجيات. ولا يعمل بوظيفة إدارية في الحكومة. بل يعمل صبي قهوجي في قهوة شبابيك مصر الجديدة. هذه المهنة يحتقرها — هو نفسه- أشد الاحتقار. وبالرغم من أنها بالنـــسبة لـــشباب آخرين تُعتَبَر فرصة -في ظل الظروف الراهنة- إلا إنها دائمًا ما كانت تصيبه بالغثيان. بالطبع يعاني بسببها مـــن صـــعوبة في التنفس. فاستنشاق رائحة الدخان الذي ينبعث مـــن الشيـــشة بالإضافة الى دخان السجائر لأكثر من ١٥ ساعة كل يوم ليس بالأمر الصحي على الإطلاق. واضطراره لأخذ أنفاسا متقطعة لتحمية "الحجر" من كل شيشة يقدمها الى الزبائن ليس ايـــضًا بالأمر المسلي.

ولكن هذا لا يعني أن أحمد لم تكن له أحـــلام او خطـــط أخرى كباقي الشباب.

دائما ما كان يعتقد أن بعض الوظائف مثل عامل النظافة أو صبي القهوجي ليست واحدة من المهن التي يحلم بها الـــشاب.

ولكنه كان يعتقد أن بعض المهن تختار أصحابها وليس العكس. وأن هذه المهنة قد تشبثت به. وأقسمت ألا تتركه.

أحمد كان يحلم أن يكون ضابط شرطة. ورغم أنه الحلم الشائع لمعظم الشباب. لكنه – على عكس باقي الشباب– لم يكن يريد أن يكون ضابط شرطة للسيطرة والوجاهة الاجتماعية والبذلة البيضاء والحذاء الأسود اللامع. ولكن طموحه كان اكبر من ذلك. كان يريد أن يكون من ضمن الفريق المكلف بحماية رئيس الدولة. من ضمن حرس الشريس. كما يطلق عليهم. بالنظارة السوداء والعيون الثاقبة كالصقر من خلفها تتابع أي حركة أمامها. والبذلة السوداء – ايضاً– التي يخرج من خلفها السلك المتصل بسماعة الأذن وجهاز الميكرفون الذي يتدلى من خلف رسغ اليد اليسرى.

ولقد عمل جاهدا لاختبارات التقدم لكلية الشرطة. فقد انضم إلى نادي اليد الحديدية لكمال الأجسام بجوار منزلهم بحي الزيتون بعد ظهور نتيجة الثانوية العامة مباشرة وحصوله على تقدير ٩٠%. كان يعرف ما يريد ودائمًا ما كان يضع خطة مسبقة لكل شيء. وهذا ما كان يميزه دائما بين أخواته البنات الثلاثة. وبين زملائه في المدرسة. وذاكر بجد واجتهد حتى حصل على درجات عالية تؤهله للالتحاق بأية كلية من كليات القمة. ليثبت لوالدة –الذي كان يريد له ان يلتحق بكلية

الهندسة- أنه فعل ذلك ليرضيه. لأنه كان يكفيه الحصول على تقدير ٦٠% للالتحاق بكلية الشرطة التي يحلم بها.

بدأ الاستعداد لاختبارات الكلية عن طريق التدريب الجسدي في صالة كمال الأجسام. والاستعانة بصديقه هاني لتأهيله لباقي الاختبارات الأخرى. في ذلك الوقت كان جاره وزميله في المدرسة -خالد النجار- يستعد معه هو الآخر للاختبارات. ولكن خالدًا كان يريد كلية الشرطة لنفوذ البذلة البيضاء. والخروج في موعد مع بنات -في الزي المدني- مساء يومي الأربعاء والخميس من كل أسبوع بالسيارة ذات الزجاج الأسود الداكن والجنوط مقاس ١٣ الرياضية وملصق أكاديمية الشرطة المكتوب باللغة الإنجليزية POLICE ACADMEY الملصق على الزجاج الخلفي للسيارة. والذي يباع في محطات الوقود والمكتبات بخمسة جنيهات. على عكس طموحات أحمد الذي كان يريد حماية رئيس الدولة.

جاء وقت الاختبارات التي استعد لها على أكمل ما يكون حتى إنه استطاع - بالتدريب المستمر- الوصول لعمل ٧٠ عدة متواصلة من تمرين الضغط. وأكثر من ١٠٠ عدة من تدريب عضلات البطن. واجتاز جميع الاختبارات بتفوق تام.

وحان كشف الهيئة المعروف. الذي لا سبيل للمهارة فيـــه؛ فإذا لم يكن والدك أو عمك أو أحد أقاربك من الشرطة. فقد ضمنت لنفسك ختم "غير لائق" على ورقك يا عزيزي المواطن المجتهد. وعلى الرغم من أن أحمد قد سمع الكثير من الحكايات عن كشف الهيئة. وعن دور الواسطة فيها. إلا أنه لم يصدق أيًا منها. أو ربما كان ذلك ما يريده عقله. بل وكلما سمع تلـــك الحكايات من أصدقائه الذين لم يوفقوا بالالتحاق بكلية الشرطة بسبب كشف الهيئة. زاد هذا الكلام من عزيمته على إثبات عدم صحته وأنه من جَدّ وجد ومن زرع حصد.

وزاد من تدريباته الجسدية والذهنية. حتى إنه في يوم مـــن الأيام سقط على أرض الصالة الرياضية مغشيًا عليه من فـــرط الإرهاق في التدريب.

وحانت اللحظة ليثبت للجميع أن كلامهم وكل الإشاعات التي يطلقونها ليس لها اساس من الصحة. ولبس ملابسه الجديدة التي اشتراها خصيصًا لكشف الهيئة. ووقـــف امـــام الـــضباط الخمس بكل ثقة وأمل. وأجاب على كل الأســـئلة بـــصوت جندي مستعد للذهاب الى ارض المعركة. فمن جد وجد ومن زرع حصد. وانتظر النتيجة.

وجاء اليوم المرتقب. اليوم الذي سيرفع فيه رأسه بين أصدقائه. اليوم الذي سيثبت فيه لوالده أنه استطاع أن يصبح ضابطًا شريفًا بدون واسطة أحد. اليوم الذي طالما عمل من أجله بجد.

وطالما أنتظره..

وجاءت نتيجة الاختبارات ومعها الصدمة. ومر قطار أحلامه من أمامه. مر وهو يتابعه بعينه السوداء. تملؤها دمعه حزينة. وهو مكتوف الأيدي في المحطة. مع باقي التعساء بدون الواسطة. واتضح له أن من جد، غيره وجد ومن زرع، غيره أكل.

وأصبحت هذه الكلمة من يومها تلاحقه أينما ذهب.

"غير لائق"

وكأن الحياة تقول في وجهه. أنت غير لائق. حتى في منامه. كان دائمًا ما يراوده الحلم ذاته. هو يمسك في يده ورقة ناصعة البياض كُتب عليها بخط أحمر عريض "أنت غير لائق". بعدها تصبح هذه الورقة حادة كالسكين. ويبدأ في تقطيع أوردته بها. إلى أن يستيقظ مفزوعًا.. هذا ما يحدث عندما يتعلق الإنسان ويعيش على حلم واحد. ويصبح كل تفكيره حول هذا الحلم

بدون وجود خطة بديلة. حينها تتعلق حياة الشخص هذا الحلم. ويصبح كل حياته. فإذا لم تنجح هذه الخطة كما خطط لها للوصول لهذا الحلم. يتهدم كل شيء. وتصبح الحياة بدون أي معنى. وهذا ما حصل مع أحمد عرفان. كانت الأحلام التي يراها في منامه عبارة عن ترجمة لما يدور في عقله. فقد راودته فكرة إنهاء حياته مرات عديدة. ولكنه لم يكن بالشخص الأناني. لم يكن يريد ان تتبدد أحلام أخواته الثلاث كما حدث معه. وخصوصا ان والده توفي بعد عدة أشهر من ظهور النتيجة.. كان أمامه خياران.. إما أن يعيش لنفسه بقية حياته ويلتحق بأية كلية أخرى ويحاول أن يدبر منصاريفه ورسوم الكلية بأية طريقة. أو يضحي بمستقبله ويبدأ في البحث عن عمل يمكنه من تغطية مصاريف علاج والده. وتحقيق أحلام أخواته بتكملة تعليمهم. ودخولهم إحدى الجامعات الكبرى التي تمنى والده أن يراه يتخرج من أحدها.

عرض عليه المعلم صبحي صاحب والده العمل عنده في القهوة التي يمتلكها. ووافق أحمد بعد أن تعب من البحث عن عمل آخر. فلا أحد يريد أن يوظف شابًّا ليس معه شهادة سوى الثانوية العامة.. عمل كصبي قهوجي. بمرتب زهيد. الا أنه كان يعوضه بالبقشيش. وتلاشت الأحلام مع دخان الشيشة والسجائر. وذابت مع فنجان القهوة التركية. وكوب السحلب مع البندق.

أصبح يعمل ليل نهار، حتى أيام الجمعة. فبقشيش يوم ممكن ان يوفر لوالدة زجاجة دواء. تحمل كامل مصاريف البيت ورسوم دراسة اخواته.

ومرت السنين. وتخرجت أخته نرمين من كلية الطب. والأخرى نيفين من كلية الهندسة. أما الثالثة فاكتفت بالثانوية العامة وفضلت رعاية والدها في المترل الذي توفي بعد ذلك. - واليوم.. أكمل أحمد عامه السابع في القهوة ذاتها. في المهنة ذاتها. كصبي قهوجي.

رأى فيهم - كل يوم- الزبائن نفسها تقريبًا؛ عم فتحي وكيل الوزارة وأصدقاؤه ممن تجاوزوا الستين يلعبون الطاولة بالساعات. ويتذكرون أيام ما كانت البلد فيها خير. والعيشة فيها بركة، أيام ملء عليه أبناؤه الحياة قبل أن تبعدهم عنه مشاغلها.. كان يسمع عم فتحي يتحدث قبل بضع سنوات عن حلمه باقتناء شاليه صغير في أية قرية من قرى الساحل الشمالي بعد سنوات عمره التي قضاها في تعليم الناس. ركضًا من الوزارة إلى الدروس الخصوصية. يعود كل يوم بعد منتصف الليل لينهض في الصباح الباكر ليعاود نفس الكرة. كل هذا لتأمين مستقبل أبنائه. كما كان يحب أن يقول لمن ينصحه بأخذ بعض الوقت لنفسه. الآن إذا تذكر أحد أبنائه أن يتصل

به مرة في الشهر. يحكي عن هذه المكالمة لأصحابه لمدة أسبوعين قادمين، كان يريد أن يقضي نصف العام في هذا الشاليه مع زوجته التي تزوجها عن حب بعيدًا عن ضوضاء شقته بمصر الجديدة، يتمتعون بما تبقى من عمرهم بأشعة الشمس في الصباح وهدوء الليل. يأكلون مما يزرعون في الحديقة الخلفية لهذا الشاليه حتى إنه أحضر معه في أحد الأيام تصميمًا هندسيًّا لما سيكون عليه شكل هذا الشاليه والحديقة الخلفية له. حتى أنواع الخضراوات والفاكهة التي سيزرعها فيها أيضًا. ولكن أحمد عرفان لا يعرف كيف انتهى الحال بعم فتحي وكيل الوزارة -طوال العام- بالجلوس على هذا الكرسي الخشبي في القهوة يمسك بيده اليمنى بخرطوم الشيشة المزخرف واليد اليسرى تلقي بالنرد الذي يلعب به.

أين ذهب ذلك الحلم؟؟ هل تلاشى في الهواء مثل أنفاس الدخان التي تخرج من فمه فتختفي بعد ثوان، وتبقى منها الرائحة لتملأ المكان، يجلس يسحب الأنفاس، إلى أن يشعر بحرقان في حنجرته فيعلم أنه قد حان الوقت لتغيير الحجر الذي يشربه بواحد آخر. او أنه قد حان الوقت للذهاب الى المترل. سواء أكان هو الرابع في ذلك اليوم أم لا.

إنها لم تعد تفرق.

يقف عند محل البقالة قبل صعوده إلى المنزل. يشتري لـــزوم العشاء من بيض وجبنه (ملح خفيف بسبب ضغط الدم) وثمن البسطرمة؛ يتصفح صحف الغد إلى أن يحضر له العامل في المحل طلباته. يحاسب، يترك الجريدة مكانها ويأخذ الطلبات ويـــصعد بها إلى شقته.

يشاهد التلفاز هو وزوجته بدون أن يفتح أحدهم فمه بأية كلمة؛ فاليوم كان مثل الأمس، وسيكون مثل الغد. يدخل إلى غرفة النوم. يحلق في سقف الغرفة الـــذي نـــسي أن يغـــير مصباحها التالف. ربما لم ينسَ.

أنها لم تعد تفرق.

في بعض الأحيان قبل أن تثقل عيناه، يتخيل سقف الغرفـــة كأنه سماء صافية تملؤها النجوم وهو يستلقي في حديقة الشاليه الذي كان يحلم به والهواء يخدر أعصابه وينمل أطرافه، يستيقظ على صوت زوجته التي تذكره للمرة الخامـــسة خـــلال هـــذا الأسبوع أنه قد نسي تغيير مصباح الغرفة. وأنه قد نـــسي أن يحضر معه السباك لتصليح حنفية المطبخ.

بالتأكيد هو لم ينسَ.

ولكنها لم تعد تفرق.

أن يعيش في الظلام الحالك. أو في عز النهار!!

هكذا كان يتخيل أحمد حياة عم فتحي كلما قدم له كوب الشاي بالنعناع الذي يحتسي منه ٣ أكواب في كل جلسة كل يوم، لكنه في بعض الأحيان كان يلمحه وهو شارد الـذهن في عالم آخر، ربما عند الـشاليه. في الـساحل الـشمالي يجمـع الخضروات الطازجة من حديقته؛ ليعد لزوجتـه طبقًـا مـن السلاطة بزيت الزيتون كما يراهم أحمد في إعلانات التلفزيون؛ فهو لا يعرف طعم أي زيت سوى زيت الجمعية الذي يـصلح ايضًا كزيت للسيارات وتزييت مفصلات الأبواب والشبابيك الصدئة.

يتسأل ماذا حدث لحلم عم فتحي؟ هل لأن سنوات العمـر التي ضاعت في العمل لا تكفي لشراء حـتى غرفـة في هـذا الشاليه.

أم إنها ببساطة لم تعد تفرق.

كان يذكره عم فتحي بحلمه -الذي حال بينه وبين تحقيقه- خمسة أشخاص. يجلسون بزيهم العسكري في اختبـار الهيئـة، حلمه الذي ضاع بعبارة "غير لائق" مكتوبة بخط عريض.

حلمه.. بالبذلة السوداء، وهو يفتح باب سـيارة الـرئيس وعينه تمسح المكان لتـأمينه ضد أي خطر، حلمه ان يكون من حرس الريس.

يتوسط القهوة تلفزيون مسطح ٤٠ بوصة. يعرض فيلمًا وثائقيًا عن حياة الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما على قناة العربية، وكيف تقلد أعلى منصب في العالم، ويقول أحمد لنفسه إنه وصل إليه بالإصرار على تحقيق الحلم وعدم اليأس، بينما يسمع احد الجالسين يعلق بسخرية " ابن المحظوظة وصل بالواسطة... بالواسطة". فيضحك البعض، بينما انشغل آخرون بشيء أهم من أمريكا وتناقضاتها الغريبة.

زكي ونادر وهاني الذين كان يسمعهم يتحدثون كل يوم عن مشروع شركة البرمجيات التي كانوا يخططون لإنشائها بعد أن يتخرجوا من كلية نظم المعلومات، يسمعهم يتحدثون الآن – بلسان ثقيل– عن النقود التي بحوزة كل واحد منهم ليتمكنوا من شراء "باكتين ويد" قبل أن "يفصلوا"، من عصام عرنوس – الذي تحول من صبي ميكانيكا بالمنطقة التي يسكن فيها أحمد الى تاجر مخدرات. كان يجلس على الطاولة المقابلة لهم يتحدث في تليفونه المحمول (الحديث) بصوت عالٍ غير واضح. بينما تقف سيارته المرسيدس (الخنزيرة) على الشارع المقابل للقهوة يراقبها بعينه التي يراقب بها الشارع لتتفحص أي وجه جديد قادم.

تذكر أحمد أن عصام قد أخبره في إحدى المرات أن حلمه هو اقتناء ورشة ميكانيكا كبيرة لتصليح السيارات الألماني فقط التي يملك عصام إحداها الآن من نقود الاتجار في المخدرات،

ولكن ما أثار حيرته، لماذا تغير حلم عصام من امتلاك ورشة كبيرة وانتهى به المطاف الى الاتجار في هذه السموم؛ هل اختار الطريق الأقصر، أم ظروفه أجبرته عن التخلي عن اليومية الزهيدة التي يتلقاها نظير عمله أسفل السيارات طوال اليوم والشحم يغطي كل أجزاء جسده.

أم إنها لم تعد تفرق معه.

أمن حلال أو من حرام.

زكي ونادر وهاني الذين كانوا يجلسون يخططون لمشروعهم بالساعات كل يوم، يتشاجرون، يضحكون، يعملون... ويحلمون. الآن مجرد.. مدمنين. كل همهم جمع ما يكفي لشراء ما يخدرهم.

مشاهدة رواد القهوة كل يوم أشبه بالذي يشاهد فيلمًا من نهايته؛ هو لا يعرف ماذا حدث للأبطال خلال اليوم، ما أسعدهم وما بكاهم؛ مِن رفع من معنوياقم ومن حطمها؛ من حقق فيهم حلمه ومن تحطم حلمه أمام عينيه. كل ما يعرفه أو ما يسمعه من أطراف حديثهم أن كل واحد من رواد القهوة كان له حلم.

حتى هو نفسه —صبي القهوجي- كان له حلم.

بدأ الشارع يخلو من المارة، ودخل ضابطان من قوات الأمن الخاص الى القهوة، يتفقدون القهوة ومن فيها. بالخارج وقف عسكري معه كلب أسود نوع جيرمن شيبرد.

في الحال علم أحمد أن سيادة الرئيس سوف يمر من أمام القهوة ربما بعد ساعتين على الأكثر؛ فمترل الرئيس ليس ببعيد عن القهوة، ولكن الطريق الذي تقع فيه هو الطريق الذي يمر خلاله موكب الرئيس سواء ذاهبًا إلى اجتماع أم إلى القصر الجمهوري. أو عائدًا إلى مترله.

رواد القهوة يعلمون انهم لن يستطيعوا الخروج بعد ذلك من القهوة إذا لم يخرجوا الآن، أغلبهم يكملون جلستهم؛ فهم ليس لديهم ما يفعلونه خارج أسوارها سوى الذهاب إلى منازلهم، ولكن الوقت ما زال مبكرًا لذلك.

أفراد قوات الأمن المركزي بدءوا في الاصطفاف على جانبي الطريق، وبعد قليل ستمر السيارة الجي إم سي السوداء كاشفة المتفجرات.

لا أحد يتكلم في السياسية الآن، الكل يغير مجرى الحديث؛ فالمواضيع الآن إما عن الأهلي والزمالك. أو عن لميس ويحي في المسلسل التركي سنوات الضياع، بينما يلتزم الآخرون بلعب الدومينو أو الطاولة بدون أي كلام متجنبين الشبهات.

في تلك اللحظة يدخل خالد النجار –جار أحمد– الذي نجح في اختبار الهيئة بالواسطة، والتحق بكلية الشرطة، بزيه العسكري يعلو كتفيه نجمتان تلمعان، ومعه صديقان آخران أول مرة يراهما أحمد. يلقي التحية على الجالسين، بينما يقوم

البعض بالوقوف والسلام عليه باليد، حتى عصام عرنوس الذي كان يعلم خالد نشاطه يذهب للسلام عليه. يقوم المعلم صبحي من مكانه ليشير لأحمد أن يرتب له طاولة نظيفة في المكان المعتاد لخالد بك.. تمر السيارة السوداء كاشفة المفرقعات ومن خلفها عدة سيارات أخرى للشرطة.. أحمد يحفظ عدد سيارات موكب الرئيس بالواحدة. ويعلم مواقع حراسة كل واحدة فيهم، فهو على مر السنوات السبع التي قضاها في العمل في هذه القهوة كان يشاهدهم على الأقل مرتين في اليوم، وفي كل مرة عندما تمر سيارة الرئيس المرسيدس السوداء، ومن أمامها الدراجات النارية البيضاء ماركة ياماها، ومن خلفها سيارات الحرس الجمهوري ماركة لاند كروزر بنوافذها المفتوحة عن آخرها، وفوهات المدافع الرشاشة تبرز منها، يترك ما في يده ويحلق في الموكب.

في أغلب الأوقات كان يتخيل نفسه وهو يجلس في إحداها؛ ليس في اللاند كروزر، ولكن في سيارة أمام سيارة الرئيس بالبذلة والنظارة السوداء، كان يحس بمدى أهميته في لحظة مرور سيارة الرئيس؛ فهو من ضمن الحرس الخاص المقربين من سيادته والمكلفين بحمايته المستعدين في أية لحظة على تقديم حياتهم فداء لحياة الرئيس.. العسكر كل واحد في مكانه، الكلاب البوليسية

المدربة تقف بجانب المكلفين بها على ناصية كل شارع. البوليس السري بزيه غير الرسمي عند مداخل العمارات، وفوق أسطح العمارات، يقف القناصة كالصقور بعينهم التي تلتصق بعدسة البندقية المعظمة.

عدة دقائق ويمر الرئيس.

يشاور خالد بيده لأحمد حتى يأتي لأخذ طلباتهم، يصل إلى طاولتهم وهم يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم، وبعد أن أخذ طلباتهم سأله أحمد بسخرية وهو يعلم الرد:

– إنت مش صحيح كنت عاوز تبقى ضابط. لأ مش أي ضابط. أنت مش كنت عاوز تكون من حرس الريس الخاص.

لم يستطع الجالسون معه من كتم ضحكاتهم أكثر من ذلك فانفجروا جميعًا في الضحك.

لأ مش بس كده. ده وصل لحد اختبار كشف الهيئة. بس يا خسارة طلع "غير لائق".

نظر كل الحاضرين الى أحمد منتظرين ردة فعله على هذا المتحذلق. حتى ضابطي القوات الخاصة على مدخل القهوة.

الصمت أطبق على المكان.

أصوات صفارات سيارات الشرطة التي تمر بسرعة عالية في الشارع بالخارج.

" ليك حق يا بيه تتريق علي..أنا ايه... أنا ولا حاجة... أنا حتى محصلتش قهوجي.. أنا.. صبي قهوجي... صبي قهوجي.. وإنت الناس كلها بتضربلك تعظيم سلام.. ليك حق يا بيه!".

قالها أحمد بسرعة ونظره معلق على الشارع، كان يعلـــم أن مرور السيارات البيجو البيضاء يعني أنها لحظات وستمر بعدها الدراجات النارية من خلفها سيارة الرئيس.

يمر معها حلمه الذي لم يتحقق بالسرعة التي يمر بها الموكب، حلمه الذي يراه يمر من امامه كل يوم على مر السنوات السبع الماضية.

لحظات وترجع الحياة بعدها الي طبيعتها، وتدب الـــروح في الشارع من جديد، وكأن كل شيء كان على الوقف المؤقـــت **PAUSE**، لحظات ويعود كل واحد الى حياته.

وينسى أحمد حلمه ليتذكره مرة أخرى والرئيس في طريقـــه إلى منزله.

لكنه قرر أن اليوم سيكون مختلف عن بقية أيام حياته.

اليوم سيتحقق له ما أراده وما تمناه منذ سنوات.

اليوم سيتحقق حلمه.

وعليه أن يسرع.

التلفزيون ما زال يعرض لقطات عن حياة الرئيس الجديـــد أوباما، لقطة السيارة الكاديلاك الكاشفة وهو واقف فيها يلوح

للمواطنين في طريقه للمرة الأولى إلى البيت الأبـــيض، يحيطـــه حرسه الخاص من كل جانب، يهرولون على أرجلهم.

أسرع احمد للمطبخ الخلفي للقهوة ليحـــضر الطلبـــات. ٢ كوب شاي وواحد قرفة باللبن، بعد دقيقتين كانت المشروبات جاهزة.

بدأ يسمع صوت وصول أول الدراجات النارية.

لديه اقل من خمس دقائق قبل وصول الرئيس.

أسرع الى الطاولة التي يجلس عليها خالد النجار ورفاقـــه، الصينية المعدنية بيده، بها الشاي الساخن والقرفة بـــاللبن. و٣ أكواب أخرى من الماء ساخن.

أحلى كوباية شاي لخالد بيه، والميـــه الـــسخنه دي علـــى حسابي كمان.. قالها وهو يكب الصينية بكل ما فيها عليه.

سقطت المياه الساخنة والشاي على صـــدره وقدميـــه، ولم يحمه هذه المرة زيه الأبيض الخاص بضباط الشرطة ولا نفـــوذه من حرق جلده، وصرخ صرخة دوّت في أرجاء القهوة وهـــو يسب ويلعن في أحمد. والتفت الجميع اليه.

ولكن أحمد كان قد اختفى.

قبل أن يغيب عن الأنظار. وأثناء صراخ خالد. اخذ أحمـــد مفاتيح سيارة الشرطة البيجو الخاصة به التي كانت موضـــوعة

على الطاولة بجانب علبة سجائره وهاتفه المحمــول بــدون أن يشعر احد. وبسرعة أثناء توجهه إلى الباب الخلفي للقهوة الذي يقود إلى الشارع الخلفي حيث تقف السيارة، خطف من ظهر الكرسي الذي يجلس عليه عم فتحي البذلة السوداء الخاصة بـه لبسها، ثم أسرع الى السيارة.

وفي الشارع الرئيسي، بدأت سيارات موكب الرئيس تمــر بسرعة.

إنها لحظات وتمر سيارة الرئيس وحولها أفراد طاقم الحراسه الخاص.

لحظات ويتحقق حلمه الذي كان يحلم به منذ سنوات.

لحظات ويصبح صبي القهوجي من طاقم حراسات الريس.

قبل أن يدير المفتاح، أخرج احمد من جيبه السماعة السلكية الخاصة بتليفونه المحمول ووضعها في أذنــه، ولــبس النظــارة الشمسية التي اشتراها أمس بعد صلاة الجمعة من أمام المسجد.

نظر في مرآة السيارة الداخلية، وعدَّل من ياقة البذلة وابتسم لأول مرة يبتسم لنفسه هذه الابتسامة المليئة بالرضا.

الدراجات النارية تقترب بسرعة. وأصــوات الــصفارات الخاصة بسيارات الشرطة تدوي في كل مكان.

هذه هي اللحظة.

أدار السيارة وانطلق بهدوء من الشارع الجانبي إلى الشارع الرئيسي. رآه عسكريان من المرور — معينان حديثا- مكلفين بمنع السيارات من الدخول الى الشارع الرئيسي. أشاروا له ان يتوقف ولكنه أشاح بيده. فابتعدوا عن طريقه وهم يحيونه التحية العسكرية عندما رأوا البذلة والنظارة السوداء ظانين أنه من الحرس الخاص. لكن شرطيي القوات الخاصة المكلفين بتأمين القهوة أحسوا بأن هناك شيئًا غير طبيعي عندما لمحوا السيارة -عند الناصية - تعبر الى الشارع الرئيسي؛ فأسرعوا إليها.

وقتها ضغط احمد بكل قوة على دواسة البنزين، وانطلق بسرعة الى الشارع الرئيسي.

مباشرة إلى موكب الرئيس.

تفادته آخر دراجة نارية، وبعدها الثانية، وأصبح الآن في وسط الموكب، زاد من سرعته حتى لا تصطدم به سيارات الحراسات الخاصة القادمة باتجاهه بسرعة عالية.

عندما كانت تحين الفرصة لأحمد أن يشاهد هذا الموكب وهو يمر في الشارع من أمام القهوة مرتين على الأقل يوميًّا خلال سنوات عمله بها. كان يأخذ لحظات وهو يتخيل نفسه واحدًا من أفراد الحرس الخاص في هذا المكان بالذات. بين كنسول الدراجات النارية وسيارة الرئيس التي تتقدمها قوات الحرس الخاص، ولكنه لسبب كان يجهله دائمًا، كان يعتقد أن

هذا الموكب تنقصه أن تتقدم سيارة واحدة فقط –التشكيل– بخلاف السيارات الأخرى التي كانت تحرس سيارة الرئيس عن اليمين واليسار، هذه السيارة يجلس هو فيها، يتقدم بها التشكيل، وهذا بالضبط المكان الذي أسرع فيه بالسيارة من الشارع الجانبي مباشرة إلى الموكب، كان يعلم جيدًا أن الدراجات النارية يفصلها مسافة عدة أمتار من سيارات الحرس الخاص، تتوسطهم سيارة أقوى سلطة في البلد.

دقات قلبه تتسارع، والعرق يتصبب من جبينه، ويداه ترتعشان خلف المقود.

لكنه.. شعر لأول مرة بإحساس لم يشعر به من قبل.

شعر بالرضا تجاه نفسه.

شعر بالاحترام لذاته.

شعر بأنه شخصية مهمة لها احترامها.

ولكن الشعور الأهم الذي ابتسمت له شفتاه مرة أخرى.

أنه قد تحقق حلمه.

أنه الآن من ضمن أفراد الحرس الخاص.

في موكب الرئيس.

مستعد للتضحية بحياته من أجله.

ها هي صورة والده وهو يحتضنه بعد قبوله في كلية الشرطة.

ها هي أمه تحضر له حقيبته السوداء التي سيذهب بها لأول مرة إلى الكلية. ولأول مرة سيغيب عنها ٤٠ يومًا.

إخوته يودعونه بقبله على خده عند الباب قبل ذهابه.

أصدقاؤه ينتظرونه أمام العمارة لتوصيله للكلية متباهين أن لهم صديقًا من أفراد الشرطة.

لم يستمر هذا الشعور إلا للحظات.

قبل أن تنطلق عشرات الرصاصات لتستقر في رأسه وباقي أجزاء جسده.

ويتناثر زجاج السيارة على بذلته السوداء وبنطلونه الجينز، وتتهشم نظارته، وتسقط رأسه على عجلة القيادة،

رصاصات انطلقت باتجاه الهدف الذي كان يهدد حياة الرئيس.

رصاصات الحرس الخاص.

حرس الريس.

أنا لم أقتل زوجتي

-١-

"عفوًا.. أنا لم أقتل زوجتي!!! أنا استمتع فقط بمشاهدتها وهي نائمة!!"

نطق شريف هذه الكلمات بمنتهى المنطق، وهو ينظر مباشرة إلى عين النقيب فخري الذي يحقق في جريمة مقتل سيدة في الثلاثينات من عمرها على يد زوجها بإحدى المناطق الراقية بحي المعادي.

داعب النقيب فخري شاربه الكثيف في حركة دائرية وهو ينظر إلى شريف، واعتدل في جلسته وقال له بلهجة حازمه:

- "أستاذ شريف، أكرر لك ما قلته بالأمس وقبل الأمس: أنت في ورطة كبيرة.. في ورطة كبيرة وإن لم تتعاون معنا

سنضطر إلى اللجوء لطرق أخرى تشبع رغباتنا وتوصلنا إلى ما نريد أن نسمعه!! واعلم جيدًا أنك قد اقتربت منها كثيرًا".

نظر النقيب فخري إلى باب غرفة التحقيقات الواقعة بإحدى المباني التابعة لمصلحة الجنايات التي تكاد جدرالها ترتجف من هلع ما رأته وسمعته خلال السنوات الماضية على أيدي ضباط التحقيقات "المحترمين".

- سعيد !!! إنت يا ابن الكلب !! فين علبة السجائر اللي طلبتها منك من ربع ساعة؟؟

نظر العسكري سعيد إلى النقيب فخري وكل أطرافه ترتعش، وقال بصوت منخفض:

- سعادتك.. العلبة قدامك على المكتب !!

كان يعلم العسكري سعيد نفوذ النقيب فخري جيدًا ولديه ولدى الكثير من زملائه الكثير من الذكريات المؤلمة التي كان آخرها مع زميله في السكن العسكري فتحي الذي منعه النقيب من الإجازة وزيارة أهله لمدة ٨ شهور حتى في إجازة العيد الرسمية جعله يداوم في المكتب بالرغم أن سيادة النقيب كان جالسًا على البحر يأخذ "تان" على شاطئ مارينا. كل

هذا لأن فتحي نسي وقدم لسيادته شايًا بدون حليب وهو طلب شايًا بالحليب!!!

أخذ النقيب فخري علبة السجائر من على المكتب وفتحها ثم أخذ السيجارة الموجودة في منتصف الصف الأول وعكسها، ثم وضعها مرة أخرى في العلبة. ثم أخذ السيجارة الثانية وأشعلها، وقال والدخان يخرج من بين شفتيه البنيتين وأسنانه الصفراء:

– يا أستاذ شريف.. انا منتظر أسمع منك تفاصيل الجريمة والدافع الذي جعلك تقتل زوجتك، وأن تغير الأسطوانة التي ترددها علينا من يومين.

وأخذ الضابط يعيد عليه ما كان يردده شريف في اليومين السابقين وحتى هذه اللحظة بلهجة ساخرة "أنا لم أقتل زوجتي!!! انا استمتع فقط بمشاهدتها وهي نائمة!! وصرخ في وجهه هراااااااااء !!!!

كل هذا وشريف يستمع إلى كلام الضابط بنظره ثابته في عينه. وقال بهدوء:

" سيادة النقيب.. أنا فعلًا لم أقتل زوجتي!!! أنا فقط أستمتع بمشاهدتها وهي نائمة!!!!

جن جنون النقيب فخري بعد أن سمع للمرة الخمسين هذه العبارة وذهبت توقعاته بأن تأتي تهديداته بفائـــدة إلى مهـــب الريح، ولكن أية ريح يمكن أن تقف في وجهه.

أخذ النقيب نفسًا آخر من السيجارة ثم وقف وأزاح كرسيَّه إلى الخلف وأسند كلتا يديه على الطاولة واقترب مـــن وجـــه شريف حتى إن رائحة أنفاسه الكريهة كادت أن تجعل شـــريفًا يتقيأ بالرغم أنه لم يتناول أي طعام منذ يومين.

" انظر إليَّ جيدًا.. انظر الى عيني وانصت إلي... لقد أخذت من وقتي الكثير، ولولا اعتبارات "الجيرة"، وبالرغم من أنـــه لم تكن تربطنا أية علاقة، ولكن زوجتي الـــتي كانـــت صـــديقة زوجتك -"الله يرحمها"- هي التي أوصتني أن أرأف بحالك!!.

للمرة الثانية أو يمكن الثالثة! لم تعجب شريف طريقة النقيب فخري في الكلام، وخصوصًا آخر ما قاله عن توصيات سيادة حرم النقيب بالرأفة بحاله!!! لقد كان يكرههم.. يكره رجـــال الشرطة جميعًا بالرغم أن له الكثير من الأصدقاء الذين يعملـــون في أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة. ولكنه كان دائمًا يضع خطًا أحمر عريضًا في علاقته معهم. حتى إنه كـــان يتخيـــل أن نظراتهم له، وهم أصدقاؤه، بها الكثير من الشك والريبة. حـــتى

أسئلتهم له "لو كانت تتعلق بسؤاله عن أحواله وأحوال عمله" بها ذلك الطابع البوليسي لتكشف الحقيقة!!

"تبًا له ولزوجته" قال شريف في نفسه، وتراجع بالكرسي الى الخلف عن أنفاس النقيب فخري الملوثة بالكثير من الجراثيم والسلطة والفساد!!

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وعدَّل ياقة قميصه بكلتا يديه واعتدل في مكانه، وقال له بهدوء وبلهجة بها القليل من السخرية:

"سيادة النقيب.... مع احترامي لسيادتك ولكلام السيدة حرمك (التي كثيرًا ما كان يحذر زوجته بالاختلاط معها؛ لأنها أصبحت نسخة من زوجها في كل شيء).. لقد قلت ما عندي".

فور انتهاء شريف من كلامه أطلق العسكري سعيد الواقف طوال هذه المحادثة "كحه" زائفة إنذارية بدون قصده، وكأن ضميره الداخلي الريفي الأصيل أوجب عليه تنبيه شريف من تغيير لهجته مع الضابط لتجنب تطور الموقف الى اللجوء "للطرق الأخرى التي تشبع الرغبات".. والتي يعلمها جيدًا العسكري سعيد، والتي يعلم أيضًا أنها تتغير من وقت للآخر حسب "الموضة الضباطية" المتبعة؟؟

ولكنه في الوقت نفسه كان سعيدًا -من داخلــه- لأنــه لم يجرؤ أحد أن يخاطب النقيب بهذه الطريقة من قبل، كانت سمعة النقيب معروفة في الوسط العسكري والإجرامي أيضًا. وكــان يرسل له رؤساؤه أعتى المجرمين الذين لم تنفع معهــم الطــرق التقليدية. وخلال ساعات قليلة (في بعض الأحيــان نــصف الساعة) يكون المتهم معترفًا بكل ما يعرفه وحتى ما لا يعرفــه، وبدأ يصور المتهمين بالفيديو مستخدمًا كاميرا تليفونه المحمول الحديث (ذو الـــ ٢ ميجا بكسل) أثناء التحقيقات.

- ٢ -

بعد انتهاء الدوام، كان يجتمع شريف وأصدقاؤه حسب نوبة كل واحد منهم في منزل احد أصدقائهم ويقوموا بتدخين "سيجارتين حشيش" وتبادل لقطات الفيديو التي صوروها خلال تحقيقاتهم في ذلك اليوم مع تبادل التعليقات والضحكات. وفي إحدى تلك الليالي تبادل النقيب فخري "فيديو اليوم" مع أصدقائه وهو يشرح لهم كيف اعترف أحد صغار مروجي المخدرات قائلًا: "هل تعلمون كيف اعترف هذا الحشرة، لقد طلبت منهم (يقصد العساكر الذين يعملون في مكتبه) أن يأتوا لي "بالصاروخ الحار" (براعة اختراع النقيب، وهي عبارة عن عصا خشبية يتم غمسها في وعاء به ماء مجاري مع الكثير من الفلفل الحار والشطة) وصورناه كما ترون حتى إنه كاد أن يُغشى عليه. تخيلوا بعد كل هذا رفض الاعتراف!! ولكن ليس معي. هل تعلمون كيف اعترف؟؟ لقد هددته بنشر هذا الفيديو في الحي الذي يعيش فيه!!! ضحك جميع من في الغرفة ضحكًا هستيريًّا، ثم عقب أحدهم على كلامه "وهل يجرؤ أحد أن يعترضك يا فخري بيه!!!

نظر النقيب فجأة إلى وجه العسكري المسكين الواقف بجوار الباب في الزاوية، وصرخ في وجهه بعد أن أحس بإشفاقه على

شريف، وفهم رسالته الإنذارية التي خرجت دون وعيه إلى شريف صارخًا في وجهه "في إيه يا ابن الكلب...؟"، نظر العسكري إلى الأرض وقد اصفر وجهه "مش عاوز اسمعلك نفس.. كأنك مش موجود في الدنيا!!

بالتأكيد لم يرد العسكري على النقيب والتزم السكوت وقال في نفسه وهو خائف حتى أن يعلم الضابط ما يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل"، رددها العسكري المسكين وكله يقين على الله سبحانه وتعالى أن كل هذه الإهانة والظلم سيأتي لها يوم وينتهي.

كانت هناك ثورة غضب قاتلة بداخل النقيب فخري؛ فقد فشل حتى الآن في نزع الاعتراف من شريف مستخدمًا الطرق السلمية (التي يعلم جيدًا إنها لا تأتي بنتيجة في أغلب الأوقات)، وقرر في نفسه أن يطلب من العسكري سعيد أن يأتي له بالأمين عماد وأشرف؛ فالنقيب يعتبرهم يده اليمنى في عمليات التعذيب وهتك العرض، كان لكلا منهم سجل حافل بدءًا باستخدام الكهرباء لصعق المتهمين في أصابع أقدامهم بعد أن يتم تقييد أيديهم وأرجلهم إلى إطفاء السجائر على الصدور والمناطق الحساسة في الجسم!!

نظر النقيب إلى العسكري ليأمره باستدعاء أمناء الـــشرطة، ولكنه تذكر وصية زوجته له "بالرأفة بحال شريف" وعدل عن رأيه ثم نظر إلى شريف وقال له:

"لا تظن أني غير قادر على أخذ الاعتراف منك، وَلكـــن كلها بضع ساعات ويأتي تقرير الطب الشرعي، ســاعتها لَـــن ترحمك حتى توصيات وزير الداخلية نفسه".

ثم نظر إلى سعيد وهو يضع علبة السجائر في جيبه :

"خذه من أمام وجهي والقِ به في الثلاجة".

أزال العسكري سعيد الغطاء عن وجه شريف فوجد نفسه في تلك الغرفة التي يطلق عليها "الثلاجة". كانت عبـارة عـن غرفة صغيرة حوالي ٢ X ٢ متر خالية من أي أثـاث، قـذرة بدرجة لا يتصورها أي إنسان. كانت رائحة البـول والبراز تفوح منها؛ فقد كان لا يسمح للمتهمين بدخول الحمام لقضاء حاجاتهم، وكانوا يُتركون يوسخون أنفـسهم في أماكنـهم، وتكاد تسمع صرخات وتوسلات وأنين من كانوا يُعَذَّبون فيها تتردد بين جدرانها، الغرفة كاحلة السواد بدون أية نوافذ أو أية إضاءة.

أسند شريف ظهره على أحد أركان الغرفة؛ فقد كانت كل قواه منهكة، ونظر إليه العسكري سعيد الذي مـازال هنـاك، وقال له بعد ان تلفت حوله وتأكد أنه لا يوجد أحد في الجوار: " لقد أحضرت لحضرتك شيئًا" واخرج من جيبه صورة صغيرة وأعطاها له.

أخذ شريف الصورة منه بسرعة، وقربها من عينيـه حـتى يستطيع أن يراها فقد كانت الإضاءة الداخلة من باب الغرفـة ضعيفة جدًا. أدرك سعيد الموقف فأسرع بخطواته العسكرية إلى الباب وفتحه قليلا سامحًا لشعاع من النور أن يدخل.

وضحت معالم الصورة الآن إلى شريف، لقد كانت صورة زوجته. حدق في الصورة لمدة ١٠ ثواني. ونزلت دموع شريف

على الصورة لأول مرة منذ القبض عليه وهو يتذكر الأسبوع الماضي عندما ذهب هو وزوجته هالة إلى أستوديو التصوير الواقع بالشارع الخلفي من منزلهم. كانت هذه الصورة لاستخراج جواز سفر لزوجته التي أعد لها هذه المفاجأة؛ فقد حجز لهم أسبوع في إسطنبول ليحتفلوا بعيد زواجهم الخامس. وتذكر المصور في أستوديو التصوير وهو يقول لزوجته قبل أن يلتقط لها الصورة: " أرينا الابتسامة الحلوة" فترد عليه بأنها لا تحب أن تبتسم في الصور الرسمية؛ فما كان من شريف الذي كان واقفًا خلف المصور إلا أن أخرج لسانه إلى هالة فضحكت بصوت عال، والتقط المصور الصورة.

كانت تلك الابتسامة التي ظهرت في هذه الصورة من أجمل الابتسامات التي رآها شريف لزوجته في أية صورة أخرى منذ خمس سنوات.

قاطع العسكري سعيد تلك اللحظة التي سافر إليها شريف بعقله من المكان القذر المسمى بالثلاجة:

- شريف بك، أنت تعلم أن هذه الصورة ممكن أن تكلفني حياتي. ولكني عندما رأيتهم لحظة القبض عليك ينتزعون صورة المدام من يدك كأنها التصقت بكفك. وحرصك على أن تأخذ هذه الصورة معك، علمت في قرارة نفسي أنك بريء، وقررت

أن آخذ الصورة وأخفيها داخل محفظتي كي أعيــدها لــك في الوقت المناسب".

ثم اقترب منه وأمسك بيديه، وهمس في أذنه:

- " الله يخليك يا بيك، لا تجعلهم يــرون هــذه الــصورة معك".

احتضن شريف العسكري سعيد بقوة، وهو قــابض علــى صورة زوجته، وانفجر في البكاء كالأطفال وهو يقول:

- "أنا لم أقتل زوجتي.. أنا لم أقتل زوجتي.. لقــد كنــت أحبها بالرغم من كل شيء.. كل شيء.. كنت راضٍ بما قسمه الله لي من عدم قدرتها على الإنجــاب رغــم حــبي الــشديد للأطفال.. كنت أحبها رغم ثرثرتها وشكواها الدائمة من كل شيء... رغم لسانها السليط.. رغم عدم إجادتها للطبخ.. رغم متطلباتها التي لا تنتهي.. لقد.. لقد كنت أحــاول أن أحتفــل بعيد زواجنا كما أريد، وليس كما كانت تريد كل سنة.. أن أحتفل بعيد زوجنا في منزلنا الدافئ بعيدًا عن أعين المتطفلين.. بدون أن أسمعها تشكو من الطاولة التي بجوارنا؛ لأن أصــوات من يجلسون فيها عالية، أو لأن الأكل قد تأخر علينا قلــيلاً.. كنت أحاول ان أحتفل بطريقتي "بهدوء" لأول مرة منذ خمــس سنوات..

أحس العسكري سعيد بثقل يد شريف عليه بعد ان أنهى آخر كلماته فنفضه بيده، ولكنه لم يلق منه أية استجابة؛ فقد أغشي عليه.

وضع سعيد رأس شريف على كفه الكبير، ثم نزل به بهدوء ووضعه على الأرض وهو يقول: "لا حول ولاقوه إلا بالله، مسكين والله، الله يعينك على ما تخبئه لك الساعات المقبلة"!

كان سعيد يعلم معنى أن يرسل الضابط فخري أي أحد إلى "الثلاجة" تلك الغرفة الحقيرة التي يقشعر لها بدنه ما إن ينطق أي أحد باسمها أمامه. تلك الغرفة التي شهدت تعذيب الكثير من المتهمين باستخدام أبشع الطرق وأكثرها حقارة. وهي الغرفة التي شهدت – أيضًا- تلفيق التهم للأبرياء لمجرد محاولتهم الدفاع عن شرفهم وشرف عائلاتهم.

أخذ سعيد "الصورة" وأخفاها في جيب سروال شريف ثم خرج من الغرفة وهو يدعو أن تمر الساعات المقبلة على خير ودوى في أرجاء الغرفة صوت إغلاق الباب وحشرجة المفاتيح داخل القفل الصدئ.

أنهى النقيب يوم عمله وتوجه كعادته كل يوم بعد انتـــهاء الدوام بسيارته الجديدة الى مترل صديقه الملازم ثـــاني ســـالم الكائن بحي هليوبوليس وكل همه أن يحضر إجابة إلى أصـــدقائه –الضباط– عندما يسألونه عن "فيديو اليوم" الذي صوره وهو يعذب أحد المتهمين. بالطبع لن يستطيع أن يقول لهم أن زوجته قد أوصته بعدم المساس بالمتهم مما سيعرضـــه إلى ســـخريتهم، بالطبع سينتشر بعدها الخبر بأن زوجة فخري بك قد أوصـــته على أحد المتهمين، إلى أن تصل الإشاعة إلى أن زوجة فخـــري بك على علاقة بأحد المتهمين الذين يحقق معهم.

- "تبًّا لهم جميعًا، سأعرف كيف أوقفهم عند حدهم"، قالها بصوت مسموع وهو يوقف سيارته امام باب مترل صديقه.

فتح عماد الباب له، ورحب به وهو يقول له: " أنا محـــضر لك "إستف مغربي" سيذهب بعقلك. أخذ يدخن الحشيش مع أصدقائه حتى سأله واحد منهم بعد ان لعب الدخان برأســـه: "ألن ترينا فيديو اليوم يا فخري بيك؟، لقد قتلتنا من التشويق!!

نظر إليه فخري بحدة، وقال: "لا يوجد فيديو اليوم" فتعجب كل من في الغرفة، ونظروا جميعا اليه ثم هتف أحدهم بسخرية: " ليه يا فخري بك، ألم يكن هناك متهمون اليوم !!

غلا الدم في عروق فخري، ولعبت المخدرات بعقله بعد أن سمع هذا التعليق، فوقف فجأة أمام ذلك الشخص وأخرج مسدسه من خلف ظهره ووجهه الى رأسه وقال له: "أتريد أن تشاهد فيديو اليوم سأريك الفيديو"، ثم وجه كلامه الى عماد وقال له: "أخرج هاتفك يا سالم بك لتصور ما سيحدث الآن!! البيك يريد ان يشاهد شيئًا مثيرًا!!

فزع كل من في الغرفة وتعلقت عيونهم بالمسدس الموجه الى ذلك الشخص، وتوقفت ضحكاتهم وسادت حالة من السكون للحظات، إلى أن نهض سالم وأمسك بيد فخري التي لم تتحرك من مكانها وهو يهدئه "صل على النبي يا فخري بيك، أنت تعرف أن صلاح جديد معنا في الشلة ولا يعرفك جيدًا".

"إذا سأعرفه بنفسي"، قالها فخري وهو يعصر المسدس ويستعد لتفجير وجه صلاح عندما بدأ الأخير في التوسل والصياح كالبنت الصغيرة التي تعتذر لوالدها "انا اسف يا فخري بيك، غلطة لن تتكرر مرة أخرى، اقسم لك إنها لن تتكرر".

- تبًّا لك أيها المتحذلق، أتظن أنك تعرفني، أتظن أنه يمكنك العبث معي، أتظن إنني سأتردد في بعثرة وجهك على جدران الغرفة".

سحب فخري المسدس من على وجه صلاح الذي صار وجهه كأحد المرضى بعد حقنة بنج، ووضعه في بنطاله خلف

ظهره، ثم خرج من الشقة وهو يقسم لنفسه أنه سيذيق شريف غدًا ألوانًا من العذاب لم يعرفها أحد من قبل للإحراج الـــذي تسبب له فيه!!

في تلك الأثناء، كانت سارة زوجة النقيب فخري في مطبخها تعد لزوجها طعام العشاء عندما لمحت فناجين القهوة التركية التي اعتادت ان تشربها يوميًّا في الصباح مع هالة زوجة شريف. عندها، بدأت دموعها تسيل.

كانت صدمة كبيرة عليها أن تعلم بوفاة صديقتها وجارتها هالة.

حدث ذلك منذ أربعة أيام عندما لم تنزل هالة كعادتها في الصباح لتشرب القهوة معها بعد أن تنتهي من تحضير الفطور والغذاء لشريف الذي كان يأخذه معه في اللانش بوكس الذي تعده له؛ لأنه كان يكره أكل المطاعم. حينها اتصلت بها لتطمئن عليها لعلها مازالت نائمة ولكنها لم ترد. فنزلت بنفسها وضربت على جرس الباب عدة مرات ولكنها لم ترد أيضًا.

كانت تسمع بعض الأصوات بالداخل فقالت لنفسها لعلها مازالت نائمة وأن شريف هو من قام ليعد لنفسه الفطور، ولكنها تساءلت لماذا لا يرد على الهاتف أو حتى يفتح الباب؟

صعدت إلى شقتها وقالت إنها ستحاول مرة أخرى الاتصال بها بعد أن يغادر شريف إلى عمله. فقد كانت تعلم أنه لا يطيقها.. انتظرت سارة قليلا ثم خرجت إلى الشرفة لترى إذا

كانت سيارة شريف ما زالت في الموقف أمام العمارة أم أنه غادر إلى عمله، فرأت أن السيارة ما زالت هناك؛ "لعله مريض، أو ليس له مزاج أن يذهب إلى العمل" قالت في نفسها وهي تحاول أن تبعد الهواجس عن عقلها وجلست تشرب قهوتها مع تدخين سيجارة المارلبورو الاحمر (نفس النوع الذي يفضله فخري) ونسيت الموضوع.

أخبرت زوجها بذلك عندما عاد من العمل فرد عليها: "إنهم عائلة مجانين"؛ فأخبرته أنها حاولت الاتصال بها عدة مرات إلا إنها لا تجيب حتى على هاتفها المحمول، فكان رده أنه ربما يكون مزاجها معكرًا، ولا تريد أن تكلم أحدًا. أو لعلها ليست في شقتها فعلاً، وقد نسيت هاتفها في المنزل، فغيرت بعدها سارة الحديث.

في اليوم الثاني انتظرت سارة خروج فخري إلى عمله بفارغ الصبر وعندما خرج هرعت إلى الشرفة لتتحقق من وجود سيارة شريف فوجدتها ما زالت هناك، ولكنها بالرغم من ذلك قررت ان تنزل لتطمئن عليها. "هل عرف شريف أنها تأتي لي كل يوم فمنعها من الخروج أو الرد على مكالماتي ؟؟ هل من الممكن أن يكون قد أصابها أي مكروه؟؟ ولكنها كانت تعلم جيدًا إنه لم يمسسها بسوء- ابدًا- في حياتها. كانت تعلم أنه يحبها وأنه خطط ان يحتفلوا بعيد زواجهم الخامس (الذي كان بالأمس) في تركيا الأسبوع القادم في إجازة العيد، حتى إن هذا

الموضوع قد أثار غيرها بعض الشيء، ولكنها تعجبت من أن سيارة شريف لم تتحرك من مكانها على غير العادة، هالة كانت تحب أن تحتفل بعيد زواجهم كل عام في أحد المطاعم العائمة في النيل، بالرغم من أن شريف كان يفضل أن يتم الاحتفال في المترل على ضوء الشموع والموسيقى الهادئة. ذلك الجو الذي كانت تسخر منه هالة وتحدث به سارة بأن زوجها "يعيش في الوهم".

هل يمكن أن يكون قد حدث لها أي مكروه؟ نزلت سارة الى شقة هالة غير مبالية إذا كان زوجها شريف سيوبخها أم لا؟ كان يحركها الفضول كما أنها كانت تريد أن تطمئن على هاله.

اقتربت من الباب فسمعت صوت التلفاز عاليًا جدًّا حتى إنها لما ركزت في الصوت علمت أنه فيلم "تيتانك" الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب، والذي كان يذكرها بحبيبها الأول عندما ذهبا لأول مرة للسينما لمشاهدته، وكيف أنها بكت كثيرًا هي ومن كان معها في السينما بعد انتهاء الفيلم. ولكنها تعلم جيدًا أن هالة تكره هذا الفيلم بشدة حتى إنها منعت شريف (الذي كان يعشقه) من مشاهدته وهي في المترل. أخذت تدق على الجرس ولكن بدون أية إجابة!!

حاولت مرة واثنين وعشرة ولكن... لا شيء!! كانت تحس بوجود من يتحرك بالداخل بحذائه على الأرضية الخشبية،

فظلت تدق وتدق، حتى قررت أن تصعد إلى شقتها وتتصل بفخري الذي نبه عليها من قبل ألا تزعجه اثناء عمله، لكنها أحست ان هناك شيئًا غير طبيعي يجري في شقة جارتها.

التقطت هاتفها المحمول وطلبت زوجها فخري وأخبرته بما حدث؛ فما كان منه إلا أن أخبرها أنها مجنونة لتتصل به وتزعجه بهذه الأمور التافهة!! بكت سارة في التليفون ورجته أن يأتي في الحال ليتحقق بنفسه "أرجوك يا حبيبي من أجل خاطري، أنت تعلم مدى صداقتي بمالة، أرجوك انا أتوسل إليك ان تأتي الآن".

مرت نصف ساعة بعدها لتحت سيارة فخري أمام المنزل؛ فهرعت من الشرفة الى السلم لتقابله أمام شقة شريف. ارتمت بين ذراعيه وهي تبكي؛ فطمئنها، وقال لها: إنه لا داعي لكل ما تفعله؛ فما لبث أن سمع صوت التليفزيون العالي القادم من داخل الشقة، فنظر إلى ساعته، فوجد أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف "هل هناك من يشاهد فيلمًا في هذا الوقت المبكر من الصباح، وبهذا الصوت العالي؟" ضغط فخري على جرس الباب فلم يرد أحد، كرر المحاولة عدة مرات ولكن بدون أي جدوى.

قالت له سارة :

- " اكسر البابَ!".

- "هل فقدت عقلك؟؟ أكسر الباب على صديقتك لأنها لا تريد أن ترد على اتصالاتك ؟؟. ردت عليه سارة والدموع في عينيها: "أرجوك، أنا أعلم أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام، وإن وجدنا أن كل شيء بخير سنخبرهم أننا شممنا رائحة غاز تنبعث من شقتهم وأننا حاولنا الاتصال بهم مرارًا، ولكن بدون جدوى، وأننا أردنا أن نطمئن عليهم، لذلك كسرنا الباب، أرجوك يا حبيبي".

تردد فخري للحظات وفكر قليلا ماذا إذا كانت شكوك زوجته صحيحة، وأن هناك شيئًا غير طبيعي يجري في الشقة. بالإضافة إلى أنه قد سئم من كلام زوجته في هذا الموضوع الذي كان شغلها الشاغل في اليومين الأخيرين؛ فلينته من هذا الأمر الآن، تبًا لجاره!! هو لا يحبه على أي حال من الأحوال ثم إنه باستطاعته أن يحرر ضده محضرًا للإزعاج الذي يتسبب به لجيرانه.

أشار فخري لزوجته بأن تفسح له الطريق وتقف خلفه، ثم رجع عدة خطوات الى الخلف وضرب الباب ضربة قوية بقدمه لكنه لم يكسره، أعاد المحاولة مرة أخرى إلى أن انكسر قفل الباب وانفتح الباب على مصراعيه.

- كانت تفوح في المترل رائحة جميلـــة، رائحـــة فواكـــه مشكلة: تلك الرائحة التي تشمها عندما تدخل محـــلات بيـــع الشموع المعطرة والفواحات في أي مول. كل شـــيء طبيعـــي حتى الآن بالنسبة إلى فخري الذي يدخل شقة جاره شـــريف لأول مرة، ولكن الأمر لم يكن كذلك لسارة التي تحفظ شـــقة هالة كشقتها. فقد كان مكان التلفاز في غرفة المعيشة خاليًـــا، الذي كان موجودًا هناك منذ يومين عندما كانت تتابع ســـارة مع هالة برنامج أوبرا وينفري على قناة إم بي ســـي فـــور في الصباح مع فنجان القهوة التركية. كما كانت الستائر الحمراء التي أصرت عليها هالة من قبل رغم اعتراض زوجهـــا مبدلـــة بأخرى ذات لون أزرق غامق.

كان ترتيب الأثاث مختلفًا؛ فقد كان هناك في الأمام من بعد المدخل إلى اليسار الأريكة الحمراء ذات الوسائد الحمراء أيـــضًا (التي تبدلت الآن بوسائد زرقاء) بجانب الكرسيين الكـــبيرين، ولكنهم الآن في يمين الغرفة. حتى الصور المعلقة على الحـــائط استبدلت بصور أخرى أكثر حيوية لمناظر طبيعيـــة ولوحـــات أخرى تشكيلية. أحست سارة للحظات إنهم في شقة أخـــرى. ولكنها ما لبثت أن قطعت شكها عندما فوجئت بتلك الصورة

الكبيرة لهالة وهي تبتسم في برواز فضي فــاخر معلقــة علــى الحائط فوق الأريكة الحمراء. لم تكن هذه الصورة موجودة من قبل؟ ثم تذكرت أن هذه الصورة هي الصورة التي أخذها هالة لاستخراج جواز سفرها منذ أسبوعين تقريبًا.

- أحس فخري بحركة في إحدى الغرف الداخلية؛ فالتفت بسرعة إلى اتجاه الصوت الآتي من آخر الردهة؛ فلمح شــريف الذي لم ينتبه لوجودهم وهو يقوم بإشعال عدة شموع حمــراء. كان صوت التلفاز عاليًا جدًّا على أغنية سيلين ديون في نهايــة فيلم تيتانك " my heart will go on ".

أشار فخري لزوجته أن تقف خلفه، واتجه بخطوات حــذره إلى مصدر الصوت. تبعته زوجته إلى غرفة النوم؛ حيــث لمــح شريف وهو مازال منشغلاً بإشعال الشموع.

نادى فخري بصوت عال على شريف وهو يتجه الى الغرفة التي تقع في نهاية الردهة: "أستاذ شريف... هل كل شيء على ما يرام؟؟؟ وهو يقترب أكثر من الغرفة، وكرر سؤاله؛ فنظــر إليه شريف وفي يده الولاعة، ثم ما لبث أن أشاح بوجهه واتجه إلى الشموع التي أمامه واخذ يشعلها الواحدة تلــو الأخــرى. أحس فخري بأن الأمور فعلاً ليست على ما يرام وأن هنــاك شيئًا مريبًا يحدث؛ فوضع يده خلف ظهره وتحسس مــسدسه

واقترب قليلاً من الغرفة التي ظهرت ملامحها الآن، وهو يكـــرر السؤال للمرة الثالثة: "هل أنت بخير؟؟ أين زوجتك؟؟. وضـــع شريف الولاعة على الطاولة أمامه ثم أدخـــل يـــده في جيبـــه؛ فصرخ فيه فخري، وهو يمد يده خلف ظهره ويصوب المسدس نحوه: "أستاذ شريف ارفع يديك إلى أعلى الآن"، ولكن شريف لم ينظر إليه، وأخرج يده من جيبه ماسكًا علبة ثقاب ثم أخـــذ خطوة إلى اليمين واستكمل إشعال الشمع.

- ٨ -

كانت غرفة النوم مليئة بأكثر من٥٠٠ شمعة حمراء. تفوح منهم تلك الرائحة العطرة التي ملأت أرجاء الشقة، كان التلفزيون الحديث (البلازما) موضوعًا فوق التسريحة أمام السرير العريض يَعرض فيلم "تيتانك"، وبجواره طاولة مليئة بالطعام والفاكهة وزجاجات العصير والكثير من الشموع الجديدة والأخرى التي ذابت. وفي منتصف الطاولة علبة زرقاء فاخرة مفتوحة وبداخلها عقد ذهبي، وتحت تلك العلبة تذاكر طيران وجواز سفر.

انتبه فخري إلى صراخ زوجته التي كانت تقف بجانبه الآن، وهي تنظر إلى السرير بهلع، كانت هالة مستلقية على ظهرها بدون حراك بفستان سهرة أسود مطرز من منطقة الصدر، ووجهها أبيض كالثلج، تغطيه بعض الزينة الخفيفة. تمسك في يدها وردة حمراء كتلك الوردة الموضوعة بجانبها في إناء أزرق على الطاولة الجانبية للسرير.

أسرع فخري إلى هالة، وتحسس نبضها، وسارة من خلفه تصرخ في حالة هستيرية ولكنه لم يجد أي نبض، وضع أذنه على صدرها ولكن لم يكن هناك أي تنفس. نظر إلى شريف الذي مازال يشعل الشمع وطلب منه أن يترل إلى الأرض

ويضع يده خلف ظهره. لم يستجب شريف فضربه فخري بقاعدة مسدسه على رأسه فركع على ركبتيه وهو يتأوه من الألم، وقيد يديه بالاصفاد. وهو يصرخ في وجهه:

"قتلت زوجتك أيها المخبول" ثم أخرج جهاز اللاسلكي، وطلب من العساكر الموجودين في سيارة الشرطة التي كانت تقف أمام بيته أن يصعدوا إلى الطابق الثالث.

هرع العسكري سعيد بعد تلقي النداء ومعه ٢ عساكر آخرين إلى النقيب فخري في الطابق الثالث، وما إن رأوه حتى أمرهم أن يأخذوا هذا الحيوان إلى قسم الشرطة. أخذ شريف يصرخ: "أنا لم أقتل زوجتي.. أنا لم أقتل زوجتي.... أنا فقط أستمتع بمشاهدها وهي نائمة" أخذ العساكر يدفعونه من على الأرض ولكنه لم يكن يقاومهم. وعندما حاول أحدهم أن يأخذ منه صورة زوجته التي التقطها من على الطاولة بجواره بدأ يقاوم وأطبق عليها بيديه إلى أن ضربه أحد العساكر بعصا الشرطة الخشبية عليها فسقطت الصورة على الأرض وداس العساكر عليها بأحذيتهم السوداء. ولكن العسكري سعيد التقطها من على الأرض وأخفاها بسرعة في حذائه الأسود ذي الرقبة الجلدية الطويلة.

أفاقت سارة من ذكريات ذلك اليوم الكئيب وعيناها مليئة بالدموع على صوت فخري وهو يغلق باب الشقة. نظرت إلى ساعتها ثم نظرت إلى الأكل الذي أخرجته من الثلاجة لطهيه (والذي ما زال على الطاولة أمامها) وفزعت لأن فخري قد وصل مبكرًا، وهي لم تنته من تحضير الطعام بعد. ألقت السيجارة التي كانت في يدها في نصف فنجان القهوة الذى لم تنته من شربه، ثم أسرعت إلى فخري لتتقصى آخر الأخبار. كانت تعلم جيدًا إنه لا يحب الحديث عن عمله بتاتًا. ولكن الأمر يختلف الآن فالمجني عليها هي صديقتها وجارتها التي تسكن فى الشقة السفلية.

نظرت إلى فخري وهو يخلع حذائه فوجدت علامات الغضب واضحة عليه. وأدركت أن هناك أمرًا ما، فبادرته بالسؤال إذا كان هناك أية أخبار جديدة ؟؟ هل اعترف شريف أم مازال يخرف بالعبارة نفسها.. كل هذا وفخري لا ينظر إليها.

"أرجوك، لا تقل لي إنك حاولت استجوابه باستخدام أساليبك العنيفة؟؟"

خرج هذا السؤال بعفوية غير مقصودة منها، كانت تعلم أن زوجها يستخدم العنف في "بعض الأحيان كما أخبرها" مع المجرمين والسفاحين، ولكنها لم تعلم بالطبع إلى أية درجة. لم

تعلم ما كان يجري في "السلخانة البشرية" في أقسام الشرطة من زوجها وأمثاله. لم تكن تعلم أن كثيرًا من " الرجال" يخرجون من "السلخانة " وهم "ليسوا رجالاً" كالعذراء الـــتي فقـــدت بكارتها على يد مغتصب سفاح!!! لم تكن تعلم أن زوجـــات وأمهات المتهمين يأتي بهم أمناء الشرطة ويتم تهديـــدهم أمـــام أزواجهم المتهمين بهتك أعراضهم إذا لم يتجـــاوبوا معهـــم!!! سارة لم تكن تعلم شيئًا على الإطلاق.

حتى وإن علمت فلن يحرك ذلك في كيانها أي شيء، كانت تحب النفوذ والسلطة؛ فمنذ صغرها، أحلامها كانت تتلخص في الزواج من ضابط شرطة!! وقد كان ما حلمت به. فبالرغم من معارضة أبويها لهذا الزواج إلا أنها لم تبال بهم وتزوجتـــه. وعرفت بعد الزواج كيف تستغل هذه السلطة التي أصـــبحت كالكنـــز في يديها. حتى إنها استخدمتها مع عم أحمد تـــاجر الخضار والفاكهة على ناصية شارعهم. كانت ترهبـــه بأنهـــا ستخبر "الباشا الكبير" أن يغلق له دكانه إذا أحست انه غـــلا عليها السعر قليلا. أو إذا ذهبت إلى المترل ووجدت أن في كيلو الطماطم الذي اشترته هناك واحدة او اثنتان لم ينضجا جيدًا!! حتى مع أم أشرف زوجة البواب العجوز كانت تمـــسح بهـــا الأرض إذا تأخرت عليها قليلا في طلباتها !! وتهددها أن تخـــبر الباشا الكبير!! وهي تستمتع بكل هذا. ذلك من أسباب منـــع شريف زوجته الاختلاط بها؛ فقد كانـــت تأتيـــه أم أشـــرف

لتشتكي دائمًا منها عندما تخصم من مرتبها الذي هو في الأصل ٥٠ جنيهًا في الشهر. فما كان من شريف إلا أن يخرج حافظته ويعوضها عن ما خصمته "الهانم زوجة الباشا" وهو يذكرها بالحديث القدسي لرب العزة "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا " وهو يصبرها بأن لكل ظالم يومًا.

تنبه فخري لسؤال زوجته الأخير عن شريف ورجائها بأن لا يكون قد استخدم العنف معه؛ فخلع حذاءه ثم اقترب منها وهوى بكف يده اليمنى على وجهها كالصاعقة حتى إن قرطها الأيسر وقع على الأرض من شدة قوة الضربة، وهو يصرخ فيها: "أريد أن أعرف ما هي حكايتك مع شريف بالضبط؟؟ هل كنت تحبينه؟؟ أم كنت ترافقينه؟؟ أم ماذا بالضبط!! ما سر اهتمامك ورأفتك به هكذا.. إنها غلطتي أني استمعت لك بالأمس حينما أخبرتني أن أطيل بالي معه وأرفق بحاله ؟؟؟ كان يجب أن أستخدم معه أسلوبي الذي أعلم بنتائجه الفورية ؟؟ ثم أقسم لها بأنه سيستخدم غدًا معه أقذر الطرق حتى إذا كانت نتائج الطبيب الشرعي قد أظهرت براءته. واخرج هاتفه المحمول وهو يلوح به في وجهها: "سأصوره لك لتشاهديه بعينك وهو يتأوه من الألم مثل الأطفال الرضع".

ثم أشعل سيجارة ودلف إلى غرفته.

في صباح اليوم التالي كانت هناك حالة من الفـــزع بـــين العساكر في القسم؛ فقد استدعى النقيب فخـــري العـــسكري سعيد إلى مكتبه في ساعة مبكرة على غير عادته، وطلب منه أن يأتي له بكل من المخبر أشرف سليم وعماد سلامة.

كان لكلا منهما سجل حافل ومعروف مـــن الإنجـــازات التعذيبية المبتكرة المعروفة لدى الجميـــع في أقـــسام الـــشرطة. واستدعاء النقيب لهما بالذات معناه أن هذا اليوم "لن يمر على خير".

في العادة يستعين فخري بواحد فقط من المخـــبرين، إمـــا اشرف أو عماد في غرفة التحقيقات أو "السلاخانة" كما يطلق عليها. يتدخل بيده -في بعض الأحيان- مع المشتبه بهم ولكـــن في اغلب الأوقات يجلس على الكرسي الخشبي ويـــأمر المخـــبر الذي معه بفعل كذا او كذا وهو يمسك هاتفه المحمول بيـــده اليمنى ليسجل عليه وقائع التعذيب بالصوت والصورة. وازداد الأمر حتى إنه في آخر مرة أخذ يسخر من المخبر عماد ســـلامة وهو يتولى صفع أحد "المتهمين" على قفاه. بأن يده لم تعد لهـــا نفس تأثير زمان وأنه من الواضح إنه "شادد حيلـــه شـــويه في البيت مع الحاجة أم العيال"، وأصوات الـــضحك تتعـــالى في

الخلف. وهو يقول له: " أجمد شوية يا عماد، أجمـــد شـــوية" وعماد يهوي بكفه على قفا المسكين الواحد تلو الأخر وهـــو يكتم غيظه من الضابط بسبب استهزائه به وذكره زوجته أمام الخلق الموجودين، ثم اخذ ينفث عن غضبه على قفا المـــسكين والضابط يقهقه من الضحك، وذلك المسكين يرجو الـــضابط والدموع تسيل من عينيه، وفخري يقول له: "مش كنت عامل لي راجل من شويه يا روح أمك".

وصل فنجان القهوة السادة الذي طلبه فخري منذ قليـــل. فأخذ منه رشفة ثم أشعل سيجارة وهو يطلب بيده الأخـــرى نمرة الطبيب الشرعي المسئول عن فحص جثة هالـــة. فـــأخبره مساعده أن الدكتور رمزي في طريقه إليه. أغلق الهاتف واخـــذ ينظر الى الدخان المنبعث من السيجارة وهو يسأل نفسه: هـــل زوجتي فعلا على علاقة مع شريف أم هي مجرد أوهام بـــسبب حساسية تلك القضية وإن لم تكن على علاقة به فما هو ســـر اهتمامها به إلى هذا الحد؟ هل أشك الآن في زوجتي؟؟؟ ســـأل نفسه هذا السؤال ودخان السيجارة يتراقص في الهواء كالأفعى. هل فقدت الثقة في الناس جميعًا حتى زوجتي؟؟ و لم لا.. الم أرى في عملي هذا ما تشيب له الولدان؟؟ وما الذي يجعـــل ذلـــك المخبول يقتل زوجته؟؟ لو "افترضنا" أنه فعلا قتلها. إنه ينكـــر حتى الآن.. وما من دليل على أنه فعلاً قتلها؟؟ لقد كانت ترقد مثل العروس في أحلى زينتها؟؟ هل من الممكن أن يكون قـــد سممها؟؟ هل شك في سلوكها؟؟ ام أن ذلك المخبول قد فقـــد عقله مرة واحدة؟؟ حتى لو كان بريئًا.. لقد ســـبب لي مـــن الإحراج والوساوس ما يدفعني الى إلحاق أشد الوان العذاب به. إنه لا يروقني على أية حال!!

انتبه فخري إلى صوت الطرقات على الباب؛ فأعتـــدل في جلسته وقال بلهجة آمرة: "ادخل".

دخل العسكري سعيد إلي المكتب ليخـــبره أن كـــلا مـــن المخبرين أشرف وعماد في انتظار تعليمات سعادته بالخـــارج، فأخبره أن يدخلهما.

دخلت جثتان ضخمتان في وائل الخمسينات إلى المكتـــب حتى إن العسكري سعيد بان كأنه طفل صغير بجانبهم، فالقيـــا على النقيب فخري التحية العسكرية وبادره عمـــاد بـــالكلام بحكم كبر سنه:

- أوامر سعادة الباشا.

فيه واحد قتل مرآته بقالوا يومين بيلعب معانا وعامل نفسه برىء. البني آدم ده قليل الأدب حتى إنه اعتدى بالضرب على العسكري سعيد وهو بيقدم له الأكل امبارح بالليل. مش كده برضه يا سعيد؟؟ اجابه فورًا سعيد وهو يتلعثم فالذي يقوله لم يحدث قط ولكنه لا يجرؤ على مخالفة كلام الباشا.

- تمام يا باشا. ده عيل قليل الأدب يا باشا.

- المهم الواد ده أنا عيزكم تروقوه. سامعني يا عماد. عاوزه يتروق ويعرف غلطوا.

- أوامرك يا سعادة الباشا.

قالها عماد وهو يقسم لنفسه إنه لن يسمح لهذا المتغطرس أن يهينه مرة أخرى أمام الموجودين، وأن تقدمه في السن لـــن يمنعه من استعمال اشد أساليب العنف مع أي متهم.

نهض فخري من على مكتبه ثم أشعل ســيجارة أخـــرى واتجه الى خارج مكتبه فأفسح له كل من أشرف وعماد الطريق ثم تبعاه ومن خلفهم العسكري سعيد.

أخذ النقيب فخري يخطو بخطوات سريعة في تلك الردهـــة الطويلة التي تملؤها المكاتب من على اليمين واليسار. فتـــسمع تارة في احد المكاتب صوتًا ناعم لفتاة شابة تهمـــس في أحـــد مكاتب الضباط، ورائحة عطرها النفاذ تنتشر الى خارج الغرفة. وتارة أخرى تسمع صوتًا غليظًا من أحد المكاتب فترى رجلاً ببذلة أنيقة واضعًا ساقًا فوق ساق، والرائحة القوية لـــسيجاره الكوبي تغيم على الغرفة. ثم تسمع صوت امرأة عجوز وهـــي ترجو أحد الضباط ان يدخل الطعام الذي جلبته الى ابنـــها في غرفة الحجز. وقد تلتقط أذنك بعض الشتائم التي تصدر مـــن بعض الغرف المغلقة.

وصل النقيب فخري ومن خلفه كلا من أشرف وعماد إلى نهاية الردهة حيث المصعد. فخطى سعيد خطـــوة إلى الأمـــام ليضغط على زر استدعاء المصعد. والضابط يحرق الـــسيجارة كمحرقة الجثث. "تن" أصدر المصعد هذا الصوت وفتح الباب ببطئ وهو يصدر أنينًا، اقشعر منه بدن فخري؛ فنظر الى سعيد وقال له "مش قلت لك قبل كدة تزيت الزفت ده" فرد عليـــه سعيد وعيناه في الأرض: "حاضر يا باشا". دلف الأربعـــة الى

داخل المصعد وضغط سعيد على الزر الذي طالما اقشعر منه بدنه الهزيل "القبو".

أغلق الباب مصدرًا نفس الآنين، وأخذت لوحة الأرقام المضيئة فوق الباب على الرقم ١٣ تنطفئ ثم تنير الى الرقم ١٢ ثم إلى ١١. في تلك الأثناء كان النقيب فخري يسترجع أحداث اليومين الماضيين في ذهنه. وصورة زوجته عالقة أمامه والاهتمام يملأ عينيها وهي تسأل عن شريف. فاحمر وجهه بدون ان يشعر. أما عماد فقد كانت كلمات فخري "اصلوا شادد حيله شويه في البيت مع الحاجة ام العيال" ترن في أذنه وهو ينظر إلى فخري بطرف عينيه وعقله يشتعل من الغضب. أما أشرف فقد تذكر المائة جنيه التي خسرها أمس في دور الدومينو في القهوة التي تقع على ناصية شارعهم.

والعسكري سعيد عيناه مثبته على الأرقام المضيئة. وكلما اقترب الرقم المضيء إلى اليسار زاد خفقان قلبه. فقد كان يعلم ما سيحدث في الدقائق القادمة. تلك الدقائق التي من المحتمل أن تمتد إلى ساعات أو ربما لن تستغرق سوى بعض الثواني!

تررن..

انتبه الجميع إلى وصول المصعد للقبو. وفتح الباب ببطء فاتجه النقيب فخري إلى اليمين في تلك الردهة الطويلة ذات

الجدار الرمادي اللون والذي تملؤه الأوساخ والبقع. ومن خلفه يتبعه الآخرون. الإضاءة ضعيفة وبعض الأنوار النيـون تـنير وتنطفئ وكأنها هي الأخرى تشعر بالخوف. هناك عـسكريان حراسة انتفضا من على كراسيهم عندما لمحا النقيـب قادمًـا باتجاههم. من الغرف المرصوصة على جانبي الردهـة تـسمع أصوات بكاء. وأصوات رجاء. أصـوات دعـاء واسـتغاثة. وأصوات طرقات على الأبواب. وأصوات القرآن العظيم يتلى.

كانت "الثلاجة" في نهاية الردهة. وكلما اقتربت منها تخفت الأصوات إلى أن تنتهي تماما عند بابها. وقبلها بمتر واحد كـــان يقف عسكري آخر. اقترب النقيب فخري من الغرفة فبـــادره العسكري بالتحية العسكرية ونظره مثبت الى الأمام وجـــسده مشدود كالعود: " إيه اخبار صاحبنا ؟" سأله فخري. "كله تمام يا سعادة الباشا.. سعادتك مطلعلوش نفس من بعد ما أخـــد القلم". " قلم إيه يا عسكري ؟؟" جاوبه فخري باســـتغراب. "سعادتك هو طول الليل ما بطلش زن..كل طلبه إنـــه كـــان عاوز قلم علشان يكتب بيه حاجة... وانا طبعًا يا سعادة الباشا مردتش عليه.. لكن محمد باشا كان بيمر امبارح بالليل وسألني عنه فقلت له عن حكاية القلم اللي عاوزه شريف..فقـــال لي اديهوله وريحنا من صوته.. وقال لي إنه هيقول لسعادتك".

كتم فخري غيظه فقد كانت مرتبة محمد بيه أعلـــى منـــه، بجانب انه لا يريد أن يبين خلافه معه أمام العساكر.

- طيب اخلص وافتح الباب.

- أوامرك يا سعادة الباشا.

أخرج العسكري من سرواله سلسة مليئة بالمفاتيح الـــصدئة المتشابهة. ولكنه عرف مفتاح الغرفة في الحال. وضع المفتـــاح

وأداره الى اليمين مرتين ثم دفع الباب بيده الأخرى فانزلق الباب بهدوء. وخرجت رائحة كريهة كالرائحة التي تنبعث من الحمامات العامة.

- افتح النور.

ضغط العسكري على زر النور الموجود خارج الغرفة بجوار الباب. وتسمرت الأعين على شريف الذي كان يرقد على ظهره ومن تحته بقعة من الدماء تجاوزت جسده وغطت أرضية الغرفة السوداء بلون أحمر غامق. وفي جانب رقبته الأيمن قلم رصاص غائص حتى منتصفه ومن تحته خط من الدماء التي مازالت تسيل. كانت يده اليسرى ملطخة أيضا بالدماء وموضوعة على صدره. أما يده الأخرى فقد كانت تمسك بصورة زوجته. تلك الصورة التي خبأها العسكري سعيد في حذائه.

لحظات مرت والكل متسمر في مكانه، والأنظار كلها معلقة بجثة شريف، إلى أن قطع صوت النقيب فخري هذا الصمت المخيف وهو يصرخ في وجه العسكري سعيد "اجرِ انده الدكتور". أسرع سعيد يجري كالمجنون الى الخارج وعاد بعد عدة دقائق بدكتور المصلحة الذي ما إن تحقق من نبض شريف حتى أكد أنه قد فارق الحياة.

كانت هناك بعض الكلمات المكتوبة بالقلم الرصاص على ظهر صورة زوجته التي كان يمسك بها بيده ولكنها أصبحت غير واضحة بعد أن انتزعها الدكتور من يده ليضعها في كيس الأدلة البلاستيكي الشفاف.

في تلك الأثناء كان الطبيب الشرعي المسئول عن فحص جثة هالة يجلس في مكتب النقيب فخري وفي يده ظرف أصفر بداخله تقرير عن سبب الوفاة. والذي أكد أن نتائج تحليل دماء المجني عليها أثبتت وجود مخدر طبي كالذي يستخدم قبل العمليات في دمائها أدى الى هبوط في الدورة الدموية وبالتالي سبب الوفاة.

لقد حقن شريف زوجته بجرعة من المخدر أثناء نومها في ظهر ذلك اليوم. بعد أن استأذن من عمله، ليستمتع بقضاء عيد زواجهم الخامس على طريقته الخاصة لأول مرة منذ زواجهم. كان يريد ان يحتفل بهذه المناسبة هو وزوجته في بيتهم بعيدًا عن أعين المتطفلين. وقد تضمن البرنامج الذي أعده تناول العشاء على ضوء الشموع وهما يشاهدان فيلمه المفضل. في خصوصية تامة. ولكن من الواضح أنه أكثر من المادة المخدرة، التي أعطاها له صديقه الصيدلي؛ ليتسنى له المزيد من الوقت ليتمكن من تحضير كل المفاجآت التي أعدها لزوجته بما فيها حجز تذاكر السفر للذهاب الى تركيا! أو ربما كانت كل هذه الترتيبات مجرد أسباب حاول إقناع نفسه بها...قبل أن يقتل زوجته!".

وبعد مرور ستة أشهر على تلك الواقعة كان النقيب فخري يعاقب بالسجن لمدة ثلاث سنوات بعد أن أبلغ عنه الملازم ثاني صلاح الذي هدده من قبل فخري بمسدسه في إحدى السهرات.

بعد أن طلب منه أن يريهم "فيديو اليوم".

رأيت الشيطان

"لا أعرف كيف اصف ملامح وجهه ليست لأنها لم تكن واضحة ولكن لأنها كانت ملامح غير إنسانية إنها ملامح شيطانية".

لم أتخيل يومًا ان أمسك القلم وأبدأ في سرد قصتي هذه. ربما لاعتقادي أن أحدًا لن يصدقها. أو ربما لخوفي في أن تقع في يد أحد أحفادي فيظنون أن جدهم العجوز -الذي قد تجاوز الستين- بدأ يخرف. ولكني أتذكر تلك الأيام كأنها حدثت بالأمس، بل ومعي ما يثبت كلامي. ربما أحكي هذه القصة الآن لأزيحها عن صدري الذي يكفيه البلغم الذي يملؤه. ولا أكذب عليكم إني قد حاولت مرات عديدة من قبل أن أبدأ في كتابتها ولكن الذعر الذي كان ينتابني وأنا أمسك بالقلم كان كفيلا بأن أتوقف في الحال!؟ الآن الوضع مختلف فقد بلغت من العمر اثنين وستون عامًا. ولا أعتقد أنه يمكن أن يخيفني الآن أي شيء. ولا حتى هو!؟

ورغم الرعشة التي في يدي وأنا أكتب هذا الخطاب من على مكتبي في غرفة نومي الذي يضيئه ذلك المصباح الصغير. يتحتم علي إنهاء هذا الخطاب. لا يهم من سيقرؤه ولا أكترث لذلك. كل ما أهتم به هو أن أزيح عن صدري هذا الحمل. الساعة الآن دقت الثانية صباحًا. نعم أحيانا كثيرة أعاني من الأرق وصعوبة في النوم. في بعض الايام أنام ٥ أو ٦ ساعات فقط في اليوم. لا يهم ذلك الآن سأكف عن الثرثرة. رغم أني لا اجد من أتحدث إليه فكل أولادي مشغولون. ولقد رفضت مرارًا وتكرارًا إلحاحهم في المبيت عندهم. وخصوصًا اقتراحهم بأن أبقى عند كل واحد فيهم لمدة أسبوع كأنني أجوب المدينة في جولة مع السيرك المحلي.

أنا أفضل البقاء هنا بمفردي في بيتي هذا. أتحدث في المساء مع زوجتي رحمة الله عليها. التي كانت زوجة صالحة، روحها الطاهرة تملؤ المكان، أم حمدي زوجة البواب تأتي كل أسبوع لتنظيف الشقة. في بعض الأحيان تطبخ لي بعض المأكولات، تكفيني لعدة أسابيع. فأنا لا آكل الكثير. تكفيني بعض اللقيمات. ها أنا قد عدت للثرثرة من جديد. أعتقد إني أحاول ألّا ابدأ في سرد قصتي التي من أجلها أمسكت القلم – أخيرا- وبدأت في الكتابة.

- يا الهي.. لقد بدأ الشعور بالخوف ينتابني مرة أخـــرى. الشعور الذي ظننت انه قد ذهب بمرور الأيام بـــل الـــسنين. ها هي يداي ترتعشان مرة أخرى. ولكني سأنهي هذه القـــصة. يجب أن أنهيها الآن. يا إلهي.. إنها نفس الرعشة التي انتابتني أول مرة رأيته فيها!؟

كنت في الخامسة عشر من عمري. صوتي يغلظ مع الأيام. ويرتسم خط خفيف من الشعر فوق شفتي كنت أعتقـــد أنـــا وأصدقائي أنه شارب!؟ بدأت ألاحظ جمـــال بنـــت الجـــيران وأعجب بها كثيرًا. لي الكثير من الأصدقاء نخرج معًا في نهايـــة كل أسبوع. لم أكن أدخن حينها كبقية أصدقائي. أو أفعل أي شيء قد يضطر والدتي لسحب ثقتها الغالية مني. كل ما كنت أحبه وأعشقه في حياتي بعد حبي لأمي هو لعب كرة القدم التي بالفعل كنت أجيدها بشكل جعلني أتقدم لاختبارات الناشـــئين في النادي الأهلي ووصولي للتصفيات، بل واختياري كأحـــد المؤهلين. وعندما طلب النادي مني موافقة والدي وتوقيعه على اتفاقية تلزمني ان أكون من ضمن الفريق. لم أذهب إلى هنـــاك مرة أخرى؟؟ أنتم تسألون لماذا بالطبع؟ ببـــساطة لأن "ابي" لم يكن يعلم أصلا أني تقدمت للامتحانات. ولو علم ذلك لنلت ما يكفيني لأسابيع قادمة!!.

- لم يفهم "أبي" أيامها أني أصبحت شابًا لـه شخـصيته المستقلة واحترامه بين أصدقائه. لم يفهم أني كأي شاب مـرح. أحب الخروج والهزار ولي مشاعري وكبريائي. وأن أية كلمـة اهانة قد يتفوه بها قد تؤذي مشاعري. وربما تصيبني باكتئـاب لمدة أيام. ولكنه لم يكن يكتفي بالإهانة اللفظية ولكن الاهانـة تعدت لتصبح جسدية ايضًا. بمعنى أدق كان يضربني!!. نعـم يضرب شابًا في مثل طوله، لا يشرب حتى الـسجائر، يحـافظ على صلاته، لا يفعل أي شيء قد يغضب ربه أو أمه. لكنه لم يكن يكترث لكل ذلك، كان يضربني لأتفه الأسباب، وعندما كانت تقف أمي أمامه للدفاع عني. كان يدفعها جانبًا بيـده ويصرخ في وجهها أنه بهذه الطريقة يربيني كي أصبح رجـلاً يستطيع أن يعتمد على نفسه ويواجه الحياة!!.

هل كان الضرب يترك آثارًا في جسدي؟ بالطبع كان يفعل ذلك. بقع زرقاء في أماكن متفرقة من جسدي. أقف في بعض الأحيان في الحمام بعد الاستحمام أمام المرآة عاريًا وانـا اعـد أماكن الضرب. ولقد وصلت في بعض المرات الى رقـم ٢١. نعم واحد وعشرون نقطة زرقاء وسوداء في جسدي. ولكـن الملابس كانت كفيلة بإخفائهم. حتى في الصيف لم أكن لأشمر قميصي او ارتدي قميص بكم قصير حتى لا أضطر للبحث عن تبريرات أمام زملائي عندما يرون كل تلك الكـدمات علـى يدي. بماذا كان يضربني؟ هذا سؤال جيد. فأبي - وأقولها كلمة حق أحاسب عليها- كان مبتكرًا في ذلك، ربما من الروايـات

الأجنبية الكثيرة التي كان يقرؤها عن القتلة والسفاحين. او ربما كانت موهبة موجودة في جيناته من والده رحمة الله عليـــه. أو ربما كانت تلك طبيعته. لا لا.. لا اعتقد أنها طبيعتـــه. لاني لم أسبق قط أن رأيته يمد يده على "أخويي" اللذين يكبرانني بعدة أعوام. أنا الذي يلقى اللوم دائمًا عليه. وأمي بالطبع كان ينالها نصيب من كلماته البذيئة؛ لأنه كان يتـــهمها دائمـــا في أنهـــا السبب في تدليلي.

الضرب في بعض الأحيان كان بيده، كأنه يلقي بلكماته كالمطرقة ليلحق أكبر أذى ممكن بعدوه في مباراة ملاكمة. أمـــا في الأوقات الأخرى فقد كان بسلكين من الكهرباء ضـــمهما معًا عن طريق شريط لاصق بلون أسود خاص بوصل الأسلاك الكهربائية. بل إني أتذكر انه قد أضاف له بعد ذلك شـــريطًا لاصقًا بلون احمر ربما ليضفي عليه بعض البهجة!! ضربة منـــه كأنك أطلقت صاعقة من سوط يشوي الظهر. خـــصوصًا إذا كنت لا أرتدي سوى سروالي القصير والفانلة الحمالات. ومع كل ضربة آخذها كنت أرى دموع أمي وهي بلا حول لها ولا قوة متروية في أحد الأركان ترجوه أن يتوقف. وهو كـــالجلاد بنظرته التي يتطاير منها الشر يقف بجانبي كأنه يعاقـــب أحـــد المجرمين في زنزانة السجن.

لكنه لم يكن أبي!

كان زوج امي. وقد سمعت أن زوجته الأولى قد ألقت بنفسها من الدور الرابع، ربما فضلت المسكينة الموت على العيش معه، أما والدي الحقيقي الذي كان يعمل مهندسًا معماريًّا؛ فقد توفي وأنا عمري عشر سنوات في أحد المواقع التي كان يشرف عليها عندما فقد توازنه من الدور العشرين من أحد الأبراج التي كان يتفقدها. وتزوج هذا النذل من أمي طمعًا في ميراث أبي. بعد ان اقنعها " اولاد الحلال" بأن الحياة صعبة بدون ظل رجل في حياتها. وأنها يجب أن تتزوج من أجل ولدها الوحيد. وتخدمنا نحن الأربعة، هو وولديه وأنا.

أمي كانت طيبة جدًّا وعلى سجيتها، خبرتها في الحياة صفر؛ لأن والدي رحمة الله عليه كان يتولى كل شئون حياتنا أنا وأمي. يحافظ عليها ويحترمها كالكنز الثمين، وهي بالفعل كانت أثمن من أي كنز. كانت أمًّا حقيقية بمعنى الكلمة؛ أمًّا يكفي أن تلقي بنفسك بين ذراعيها فتشعر كأنك في الجنة وتنسى آلام السلك الكهربائي او الخرزانة التي ما تزال تحرق جسدك. واليوم الذي فقدت فيه أمي بعد صراع لها مع المرض فقدت فيه كل شيء في حياتي، وأظلم كل شيء من حولي. أحسست –وقتها– أني وحيد في هذه الدنيا. وصدق جدي الذي كنت أزوره مع أمي كل فترة عندما كان يكرر عبارة "اللي بلا أم حاله يغم؟!!" وبالفعل كان ذلك حالي بعدها، رغم أني كنت أبلغ من العمر الخامسة والعشرين. ولكني

مازلت أذكر عندما كنت في الخامسة عشر. عنـــدما كنـــت الشاب الذي تملؤه الحياة.

كنت حينها أعايش قصة أول حب في حياتي، سارة الـــتي تسكن في الدور الأول من عمارتنا ،تتلامس يـــدانا مرتـــان في اليوم. مرة ونحن ذاهبان إلى المدرسة،عندما نتصافح في الصباح وأخرى بعد انتهاء اليوم الدراسي. كانـــت أمهـــا تقلـــني إلى مدرستي التي تبعد حوالي ١٠ دقائق من مدرستها. وبالرغم أنها جارتنا إلا أنها كانت تتلقى أجر من أمي كل شهر من أجل أن توصلني إلى المدرسة وتأتي بي بعد انتهاء اليوم الدراســـي،كنت أجلس في المقعد الخلفي بجانبها بينما تجلس أختها الكـــبرى في الأمام تقوم بتشغيل جهاز الكاسيت. كانت تصافح يـــدي — التي دائمًا ما كانت باردة كالثلج- في الصباح وبعد الظهـــر. وتدير وجهها في استحياء ناحية الشباك بجانبها. بينما كنت أنا أسرق نظرة لأتطلع عليها من انعكاس وجهها في زجاج الشباك الجانبي؟!

لم تتح لي أي فرصة أخرى للتحدث إليها وإخبارهـــا عـــن مشاعري. كنت وقتها خجول جدًا وكثيرًا ما كنت أتلعثم في الكلام. كنت أراها أجمل فتاة في العالم بعد أمي بالطبع،رقيقـــة كورقة الشجر.

أتذكر أنني كتبت لها مرة خطاب من عدة أســـطر،مازالت أتذكر كلماته: " عزيزتي سارة.. كل يوم عنـــدما أراكـــي في

الصباح تشرق شمسك على ايامي فتنيرها كنور القمر في السماء القاتمة وفي المساء عندما تذهبين تغرب الشمس معك وتصبح دنياي ككوكب مهجور ذهبت عنه أقماره". توقيع: حبيبك المغرم بك.

ولكنني احتفظت بالخطاب لنفسي. كنت أضعه في جيبي كل يوم وأنا ذاهب معها في سيارة والدها إلى المدرسة ولكنني كنت مترددا في أن أعطيه لها،بل خفت أن تراه أمها فتذهب إلى "أبي" فيكون جزائي علقة من النوع الثقيل الدسم. واكتفيت بدعوة نفسي بالجبان. بينما انتظرتني أن أفاتحها بإعجابي الشديد بها. ببعض التلميحات الخفية التي كنت التمسها منها.

حدث في يوم أني ذهبت لشراء علبة سجائر "لأبي" من الكشك الموجود على ناصية شارعنا،وعند عودتي رأيتها تخرج النفايات إلى خارج الشقة وتضعها لعامل النظافة الذي كان يمر كل يوم لجمعها. وعندما وقفت أمامها أحسست كأنني أقف أمام شخصية أسطورية من قصص الأطفال التي كانت تحكيها لي أمي،إنها بالفعل أميرة. لم تكن بزي المدرسة الذي اعتدت أن أراها به كل يوم. بل بفستان زهري بسيط. وشعرها الذي لم يكن يحكمه أي شيء ،متمرد يتحرك مع تمايل حركتها. وقفت أتأملها كأني أتأمل مشهد الغروب على شاطئ البحر. بادرتني هي بابتسامة لن أنساها. بل وقالت لي حينها بصوت يشبه

خرير الماء " أنا بحس إنك عاوز تقولي حاجه كل يوم، انا مش عاوزاك تتكسف. لو مش قادر تقولهـــا.. اكتبـــها في ورقـــة. هستناها منك بكرة.. باي باي؟! ودخلت وأغلقت الباب.

أتذكر أني وقفت متسمرًا أمام الباب بعد أن أغلقته لمدة غير معلومة من الزمن. فقد أبت عيناي أن ترى أي شيء بعد هذا الجمال. ورفضت قدماي أن تتحرك خطوة واحدة ،بالتأكيد أنه حلم،ولكني أفقت بعدها على صوت عامل النظافة الذي يشبه نقيق الضفدع وهو يقول " بعد إذنك كده يا أســتاذ خلينـــا نشوف شغلنا".

جلست أكتب قصائد كثيرة عنها في هذه الليلة،حتى نفذت الكلمات،ونمت وأنا أحلم بصباح اليوم التـــالي. وقابلتـــها في الصباح. كانت أجمل وأجمل. كأنها تزداد حلاوة كـــل يـــوم. لكنني ترددت في إعطائها القصائد وقلت لنفسي أني سأعطيها إياها في طريق العودة. ولا يهمني إذا رأتها أمها وضربت مـــن أجلها فهي تستحق أن أضحي بحياتي من أجلها.

ذكرت لكم سابقًا حبي لكرة القدم التي يـــرى "أبي" أنهـــا مضيعة للوقت. وقد منعني وحـــذرني مـــرارا وتكـــرارا مـــن لعبها،وصادف أن اليوم هو نهائي دوري المدارس. وقـــد راح ذلك عن بالي تمامًا. ولكن وجودي مع فريقي كان مهم جـــدًا للحصول على الكأس. وانشغلت في لعب الكرة. حـــتى أنـــني نسيت أن جارتنا كانت تنتظرني بالخارج وأنه ميعاد عودتي إلى

المترل ،وانتهت المباراة،وكسبنا الكأس،وتذكرت أن جارتنا — أم حبيبتي — بالتأكيد قد جاءت في الموعد. وإنني نسيت أن أخبرها أنني سأتأخر. ولكن حتى لو كنت قد تذكرت. ماذا سأقول "لأبي". أني كنت ألعب كرة القدم. ومن المؤكد قد استاءت سارة لأنها كانت تترقبني،تحسست قصائد الشعر الذي كتبته لها. مازالت في جيبي. سأحاول ان اجد طريقة لتصل هذه القصائد اليها اليوم. هي ستتفهم بالتأكيد ما حدث.

وصلت البيت، كان أبي في انتظاري. ستستغربون من أنني أطلق عليه لقب "أبي". لقد أجبرني على ذلك. وانفجر في غاضبًا في يوم من الأيام عندما أخبرته أنه ليس أبي بل زوج أمي ،ولم يرحمني في ذلك اليوم وبعدها. وحتى الآن حتى بعد موته منذ عشرات السنوات مازلت أطلق عليه "أبي" لأنني كنت أخافه ومازلت أخافه.

كان يقف "أبي" في مدخل البيت ممسكا في يده بالسلك المزدوج الملصوق بالشريط اللاصق -الأحمر والأسود. وفجأة وبدون مقدمات هوى به على صدري. حتى إن قوة الضربة أسقطت حقيبتي من يدي. ودوى صوت الكأس الذي ربحناه على البلاط من حقيبتي. فركلها بقدمه فانفتحت الحقيبة ووقع الكأس على الأرض بينما طار غطاءه في زاوية الغرفة. صاح في وجهي " كنت بتلعب كرة يا كلب. والست واقفة برة مستنياك. انت فاكرها خدامة أبوك؟؟!! " ثم هوى على يدي مرة أخرى بالسلك.

وبدأت أبكي مثل البنات.

" الست اللي انت فاكرها شغالة عندك !!! كتـــر ألـــف خيرها إنها بتوديك وتجيبك.. تقوم سيادتك تسيبها ملطوعـــه بره.. وانت قاعد بتلعب كره جوه مع اصحابك".

أتذكر أن ألألم افقدني القدرة حتى على أن أتأسف رغم إنني لم أرتكب جريمة. كنت أمسح دموعي بيدي حتى لا يراهـــا. ولكن الدموع أبت أن تقف ،كأنها كانت مختزنة طوال تلـــك السنين، لم يسبق أن بكيت ولو لمرة واحده أمامه ولكني هـــذه المرة كانت الدموع تنساب كالمطر،سحبني "أبي" مـــن يـــدي ونزلنا على الدرج بسرعة وهو يقول " تعتـــذر لهـــا حـــالاً.. سامعني.. وتقولها انك غلطت وانها غلطة مش هتتكرر تـــاني" ساعتها من كثرة البكاء بدأت أصاب بضيق تنفس،ولكنه كان يجرني من يدي كالخروف الذاهب إلى المذبح. وقفنا أمام بـــاب جارتنا. خبط على الباب بلطف. وحصل ما كنت أخشاه. فقد فتحت سارة الباب وتسمرت عيناها. أبي يمسكني مـــن أعلـــى يدي كمسكه العساكر للمجرمين. عيناي محمرتـــان كالـــدم. دموعي بللت قميص المدرسة، الذي سقط منه أول وثـــاني زر. علامة السلك الذي نزل على صدري كالسيف بارزة كـــأنني واقف بجانب جلاد قد انتهى للتو من جلدي. أتذكر علامات الفزع التي رأيتها لأول مرة على وجه سارة التي هرعـــت إلى

الداخل لتنادي على أمها. وما لبث "أبي" أن رآها حتى اعتـــذر لها وقال أنه لقنني درسا سأتذكره مدى حياتي. وأنه أتى بي إلى هنا حتى اعتذر لها. أتذكر نظرة أبي لي وهو يصيح في وجهـــي "اتفضل... اتفضل اعتذر للمدام" أنفاسي كانت توشك علـــى الانقطاع وأحسست أن قلبي سيتوقف الآن عن النبض. صراحة حاولت أن أنهي هذا الموقف بالاعتذار لكن الكلمات امتنعـــت هي الأخرى عن الخروج مثلما امتنعت عيناي أن تتوقف عـــن البكاء ،صرخ في وجهي مرة أخرى. حاولت أن أفتح فمي ،أن أحرك شفتاي ،ولكني لم أستطيع. كنت أشهق كالغريق الذي دخل ماء البحر المالح في انفه وفمه. وفي المرة الثالثة التي صـــرخ فيها هوى بيده الثقيلة على وجهي بصفعة أظلمت بعدها الدنيا من حولي. ولكنني أتذكر بوضوح أن آخر شيء رأته عينـــاي قبل أن أغيب عن الوعي وأسقط على الارض هو وجه ســـارة الملائكي الذي كان ظاهرًا من وراء الجدار خلف أمها ودموعها هي الأخرى تتساقط من عينيها التي كانت تحدق في.

لم أدري كم بقيت فاقد الوعي. أو ماذا حدث بعد ذلـــك. ولكني أفقت بعدها فوجدت نفسي في غرفة "أبي" نائمًا علـــى سجادة رفيعة على الأرض،الغرفة كانت مظلمة لكن كانـــت تقطعها أضواء التليفزيون بالخارج الذي كان يشاهده والـــدي في الظلام أيضا كعادته. وأصوات ضحكاته تمـــلأ المكـــان. لم

أدري أين ذهبت أمي أو أولاده " أخواتي" في هذا اليوم. ظللت نائما على ظهري أتوجع بدون صوت وكأنني أنام على ســـرير من مسامير،لا أعرف بالضبط مصدر الألم،كل الذي أعرفه أنني كنت أرتعش. وأن أطرافي كانت بـــاردة كـــالثلج. عينـــاي مورمتان. وبدأت أشعر بخوف غريـــب لم افهـــم في البدايـــة مصدره. كأنني أحلم. حلقي جاف. دقات قلـــبي تتـــسارع. وعلى الرغم من شعوري بالبرد إلا أنني بدأت أعرق،وبدأ العرق يتصبب على جبيني. وسقط على فمي. طعمـــه مـــالح كمـــاء البحر. حينها فقط رأيته أمامي!؟

ولكن قبل ان أراه شممت رائحة كالرائحة التي تشمها بعـــد إطفاء عود كبريت،تلك الرائحة التي تنفذ مباشرة إلى خلايـــا مخك. ولكن الفرق أن تلك الرائحة كانت أقوى مائة مرة منها. كأنك قد أوقدت مائة عود فانبعثت هذه الرائحة منـــهم مـــرة واحدة. رأيته يلبس معطف أسود حالك بلا أية أزرار. شـــعره أسود ثقيل ناعم ينسدل حتى كتفه،لا أعرف كيـــف اصـــف ملامح وجهه ليست لأنها لم تكن واضحة ولكن لأنها كانـــت ملامح غير إنسانية إنها ملامح شيطانية.

كان يقف بجانب سرير "أبي" بينما كنت أنا أمامه نائم بلا حراك على الأرض أمام الدولاب. حاولت ان أصرخ،ان أقف وأركض خارج الغرفة. حـــتى أن أتزحـــزح لأختبـــئ تحـــت الدولاب. ولكني لم أقوى على الحركة. وكأن يداي وقـــدمي مربوطتان بحبل خفي. دقات قلبي تتسارع. سيقف قلبي الآن في

أي لحظة.. للأبد. أطرافي تزداد برودة. والعرق يتـصبب مـن جبيني كقطرات الندى التي تتساقط علـى اوراق الـشجر في الصباح... بهدوء الواحدة تلو الأخرى.

كان كأنه قد خرج لتوه من الجحيم، بدأ يقترب مني، لم أرى له ساقين. كل الذي رأيته معطفه الأسود الجلدي وراسـه التي يغطيها شعره الناعم. يشبه "الحانوتي" في مصارعة المحترفين. ولكن هذا الذي كان يقف أمامي له وجه شيطاني..

بل أنه الشيطان نفسه.

كلما اقترب مني كلما زادت رائحة الكبريت تلك مخترقـة أنفي تخدر باقي أعضائي. سمعت صوت "أبي" بالخارج يضحك قاطعتها ضحكة شيطانية منه كصوت الرعـد اخترقـت أذني وأطرشتها بل وتركت طنين طويل.. لقد ضحك الشيطان مع ضحكة "أبي"، ضحك ويداه تتمدد إلى الأمام كالخرطوم باتجاه رقبتي!!

غبت بعدها عن الوعي مرة أخرى.

أفقت هذه المرة على سرير في مستشفى خاص. بخـراطيم تتمدد من يدي متصلة بأكياس تحتوي على سـوائل شـفافة. ووجدت أمي تسند رأسها بيدها جالسة على الكرسي بجانـب سريري تنظر إليّ بعينين تحتهم خطين أسودين. ارتمت بذراعيها عليّ عندما رأت عيناي تتحركان. وأخذت تقبل جبيني.

جلست في تلك المستشفي حوالي أسبوعين آخرين تحت إشراف طبيب نفسي. لم أستطع خلال تلك المدة الكلام وكأني طفل صغير لم يتعلم الكلام بعد،كانت تحيط يدي خطوط زرقاء كأن قد ربطهم أحدهم بحبل رفيع. لم يجد الأطباء لهذه الخطوط أيّة تفسير. كما لم يجدوا تفسير لثقل السمع الذي أصبت به بعد ذلك.. لم تلتقي عيني بعد ذلك بسارة مرة أخرى. كنت أجلس داخل السيارة في الأمام كالتمثال في طريق الذهاب والعودة من المدرسة،ولا ألقي حتى السلام على أي احد،وأتذكر ان قلبي قد احترق مع كل القصائد والخطابات التي لم يبقى منها سوى رماد تطايرته الرياح.

بعد أسبوع من خروجي من المستشفى. وبعد عودتي من المدرسة، دخلت البيت فوجدت أمي منهارة على سريري تبكي، تغطي يداها بقع زرقاء بينما احمرّ باقي جلدها، تمسك رأسها بيديها الرقيقة الضعيفة. بينما جلس "إخوتي" على المقعد أمام التلفزيون و"أبي" يصرخ من فوق السطوح وهو يضبط أريال التليفزيون. وهم يجاوبونه "يمين شوية.. لأ كده راحت الصورة.. ارجع تاني"

لم يحس أحدهم بوجودي..

تسللت بهدوء إلى الخارج وطلعت إلى السطوح حيث كان "أبي".

كان يقف بسرواله الداخلي القصير المخطط وفانلة الحمالات ،ظهره لي يحرك الأريال يمينًا ويسارًا،بخطوات سريعة خفيفة وصلت عنده. إنه آخر طابق بلا جدار يحيط بالسطوح. ركلته في ظهره ركله قوية. اختل بها توازنه وسمعت بعد لحظات صوت زجاج سيارة يتحطم بالأسفل وأصوات صراخ. ساعتها سمعت أيضا صوت نفس الضحكة الرعدية التي سمعتها في غرفة "أبي" تتجلل في أذني.

مات "أبي" في الحال.

وحققت الشرطة وكتبت في محضرها أن سبب الوفاة اختلال في التوازن وأنه لا يوجد أي دليل إدانة على أحد. تركنا بعدها أنا وأمي البيت وعشنا في مدينة أخرى في سعادة إلى أن هزمها المرض.. لم أخبر أمي بقصة "أبي" ابدا، ربما راودها إحساس أن لي يد في مقتله، لكننا لم نتكلم عن هذا الموضوع مرة أخرى. كما لم أخبرها عن قصة الشيطان الذي رأيته وضحكته المخيفة.

وها أنا قد أزحت هذا الحمل عن صدري. أستطيع أن أنام الآن بهدوء. حتى رائحة الكبريت التي أشمها في الغرفة الآن لم تعد تؤرقني. ولا حتى ضحكاته التي أشعر أنها تملأ الغرفة الآن..

فقد فقدت سمعي منذ زمن بعيد.

فقدته بعد ضحكة الشيطان!

حلبة اللا قوانين

لقد كانت قفزة جنونية، تلك القفزة التي قام بها.. ياله من شخص بارع.. ولكني لن أدع له فرصة ثانية... فالانتصار دائما حليفي... هكذا عودت كل من يعرفني... وإن كان الانتصار في بعض الأحيان يستلزم بعض التضحيات... لكن أي تضحيات عليّ تقديمها هنا... إنها حلبة!!! وأي حلبة !!! إنها حلبة اللا قوانين!!!.. حيث لا قوانين ولا أنظمة او آية لوائح... إنها تجمع مختلف الجنسيات والأشكال والألوان.. لا مجال هنا للرحمة أو الشفقة... لا مجال للضعيف أو الهزيل !!! والنصر للأقوى !!

- لا أحد أبرع مني هنا !!

ألقت حبيبة نظرة إلى الجمع الذي علّا تشجيعه وهتافه.. لقد ازدادت المنافسة.. إنها فعلا فرصتي لأضع لهم حد... لقد استلزم الأمر مني أيامًا بل إلى شهورًا من التدريبات حتى أصل إلى هذا المستوى.. ولن أدع مثل هذا ال........

- اه اه ه ه ه

سقطت حبيبة إثر دفعة مباغته قام بها في سرعة غريبـــة... سرعة فعلا أدهشت الحضور.. ورنّ صوت معـــروف في أذن حبيبة وهي ساقطة على أرض الحلبـــة وعلامـــات الألم علـــى وجهها...

- حبيبة أنت كويسه ؟؟؟ قومي !!!

لم تسترعِ اهتمام حبيبة أي من هذه الأصوات... لقد جنّ جنونها عندما علمت أنها إثر سقوطها سقط منها ذلك السلاح الذي منذ ١٠ دقائق فقط بذلت الكثير من جهدها وكبريائهـــا لتحصل عليه والذي بذلت مجهود اكبر في إخفائه عـــن أعـــين الحاسدين والحاقدين المنتشرين في كل أرجاء المكان.

لقد ضاعت آخر فرصة هباء.

استعادت حبيبة عافيتها إثر هذا السقوط الذي أشعل فتيـــل الغضب في رأسها، والذي زاده أن المسح الدقيق الذي قامت به بعينها للبحث عن ذلك السلاح لم يأت بأي نتيجة .

- آسف.. ولكنك لم تترك لي أي خيار.

نظر إليها نظرة تحدي وارتسم على شفتيه ابتسامة مـــستفزة مستهزئ بكلامها، ثم ذهب إلى الزاوية وهو ينظر إلى الحـــشد بنظرة بها الكثير من الكبرياء والتعالي.

لقد نفذ صبر حبيبة وقررت أن تلقنه درس لن ينساه أبدا... لقد استعدت من قبل لهذا اليوم.. وقد حان وقت التنفيذ... قامت بهدوء وعدلت من ملابسها... ومشت بخطوات جريئة إلى الزاوية والتقطت شيء حاد يلمع من على الأرض كانت قد أخفته في شعرها... نظرت نظرة سريعة إلى الناس فوجدت انه لم ينتبه أي أحد إلى تلك الحركة... فأخفته بسرعة بارعة في رأسها مرة أخرى وأكملت خطاها إلى تلك الزاوية.. سيستلزم الأمر هذه المرة سرعة رهيبة لم تجربها من قبل حتى تستطيع تحقيق خطتها.. ولكن هذه هي الفرصة الوحيدة لتلقينه هذا الدرس...

لم يسبق في حياتها أن تجرأ احد على هذا الفعل... لقد كانت مفاجأة للجميع... حتى الذين يعرفونها جيدا.. استشعروا رائحة الخطر في المكان...

حامت علامات الاستفهام فوق الرؤوس منتظرين بشغف الخطوة التالية... بالطبع كونه لا يعرفها ليس سببا لتغفر له...

وقفت في الزاوية الأخرى وعلامات التحدي والانتقام تبرز من عينيها... وأعين كل الحاضرين تلمع بشغف لإنهاء هذا الموقف الذي بدأه هذا الجاهل... أو هكذا بدا لها!.

نظرت نظرة أخيرة إلى مكان معين وسط الحضور... ذلك المكان الذي دائما ما تتابعه بعينها...لتتلقى الإشارة..

لقد اشتد الموقف، وساده لحظات صمت كصمت الاسد بعد وجبة شهية من الغزلان الشابة ،وفجأة وبدون أي مقدمات.. أخذت حبيبة أول خطوة من خطوات كرمتها متجهة مباشرة إلى الهدف وفي يدها ذلك الشيء الذي أخفته في شعرها عندما قطع الموقف ذلك الصوت المعروف لحبيبه..

- هيا بنا يا حبيبه.. لقد لعبت بما فيه الكفاية. ولديك الكثير من الواجبات المترلية التي لم تبدئي فيها بعد!!!

- أرجوك يا ماما.. خمس دقائق.

- يكفي يا حبيبه.. هيا بنا نذهب.. وأين ملقاط شعرك؟؟

- إنه معي في يدي.. لقد دفعني ذلك الصبي ووقع مني على أرض الحلبة!

ضاحكه:

- حلبة !!! هيا يا حبيبه البسي حذاءك وتعالي خلفي. والدك ينتظرنا.

خرجت حبيبة بهدوء من تلك "الحلبة" الموجودة للأطفال في ركن إحدى الأسواق التجارية وهى عبارة عن إحدى الألعاب الهوائية التي يستمتع الأطفال بالقفز عليها وفى ذهنها الاستعداد للقاء يوم الخميس المقبل!!

مسألة مبدأ

إنها "مسألة مبدأ" لا أكثر ولا اقل..

- لسه فاضل حد في أجندة النهارده يا مني ؟

- لا يا دكتور.. مدام "ألفت" كانت آخر واحدة.

أجابته السكرتيرة عبر الهاتف وهي تنظر في ساعتها.

أغلق الدكتور فاضل ذو ٤٥ ربيعاً كمبيوتره المحمول واستعد للخروج من عيادته بالزمالك، لقد كان يومًا طويلا مع مرضاه، وخصوصا مع مدام "ألفت"، تلك السيدة الآنيقة التي لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها، والتي تعاني بكل بساطة من مرض "تعدد العلاقات" !! كان الاستماع لهذه السيدة بالذات وهي مستلقية على "الشزلونج" تحكي عن علاقاتها المتعددة خارج نطاق الزواج يثير فى نفسه الشعور بالاشمئزاز و"القرف" رغم علمه أنها "مريضة" وأنها بحاجة إلى عدة جلسات طويلة للعلاج.

فاضل يستمتع جدا بعمله هذا، فمنذ نعومة أظافره وهو مشهور عنه أنه ذلك القلب الدافئ لكل من حوله ،كان يحب

أن يساعد الناس وأن يستمع إلى مشاكلهم. لقد أعطاه ذلك الحب وهذا الشغف دافع في أن يصبح طبيب نفسي متميز ويحقق نجاحًا كبيرا- في سنوات قليلة- يحسده عليه الكثير.

ولكن ذلك "الإحساس " الذي كان يراوده في الآونة الأخيرة ينغص عليه حياته ويكاد يقلبها رأسا على عقب.

أمسك فاضل بجهاز التحكم عن بعد للباب الكهربائي الرئيسي لفيلته التي تقع في طريق مصر- إسكندرية الصحراوي وفتح الباب ، لقد وصل اليوم فى وقت مبكر بغيرعادته إلى مترله ،فتح الحقيبة الخلفية للسيارة والتقت حقيبته وكيس بلاستيكي به نوع الشيكولاته الذي تفضله،اشتراه وهو في طريقه إلى المترل. وأدار المفتاح في الباب. أضاء الأنوار وأخذ ينادي عليها كعادته معلنا وصوله إلى المترل ولكنها لم تكن في انتظاره..تاهت عيناه في غرفة الجلوس يبحث عنها لعلها مشغولة بشيء و لم تنتبه لدخوله كما يحدث في بعض الأحيان ولكنها لم تكن هناك ،لا يوجد لها أثر.. "غريبه".. قالها فاضل لنفسه وهو ينظر إلى ساعته.. "تكون راحت فين دلوقتي ؟؟".

شعر فاضل بشعور غريب ينتابه.. نفس ذلك الشعور الذي يلازمه منذ حوالي شهر كامل. والذي تؤكده له الكثير من الأدله والبراهين ولكن عقله الباطن يرفض الفكرة من أساسها.

ألقى الأغراض التي اشتراها في إهمال على طاولة المطبخ ولمح طبقها وهو مليء بالطعام وكأنها خرجت على عجل و لم تستكمل حتى طعامها! زاد شعوره بالشك وهو يتمتم لنفسه بكلمات غير واضحة.

صعد فاضل إلى الدور الثاني في منزله المكون من طابقين والذي يوجد في الدور الثاني منه غرفة مكتبه وغرفة للضيوف وغرفة نومه، عندها شعر فاضل بصوت داخل غرفة نومه ؛ فأسرع إليها راكضا وفتح الباب بسرعة.. وأدار رأسه نحو مصدر الصوت.... فلم يجد شيئًا.. وتذكر أنه عليه أن يخبر عم أحمد الجنايني عن جزع الشجرة الموجود في الحديقة الخلفية للمنزل لأنه يحدث صوتا مع حركة الرياح عند احتكاكه بشباك غرفته الزجاجي!!

اتجه فاضل بعد أن أخذ حمام دافئ ليصفي به عقله ويغسل أعشاش هواجسه التي ملأت كيانه،إلى المطبخ وصب لنفسه كوب من الحليب عندما سمع صوت سيارة تنطلق بهدوء من أمام منزله !! ترك الكوب من يده بسرعة وهرع الى الشباك ليتفحص السيارة لكنها كانت قد ذهبت!! كان حدث غريب لانه لا يوجد بجانب منزله أي منازل اخرى.. لقد كانت مجرد أراضي صحراوية يظن هو أن حتى أصحابها قد نسوا أنهم اشتروها !

لعل السيارة لأحد الشباب الذي كان يبحث عـــن مكـــان مستور عن أعين الناس . ولكنهم عندما أحسوا بوجود أحد في المترل.. فضلوا البحث عن مكان آخر.. قالها فاضـــل لنفـــسه محاولاً أن يُهدئ من روعه.. ملأ كوب الحليب مرة أخرى بعد ان سقط نصفه على طاولة المطبخ وأخذه ثم صعد إلى الطـــابق الأعلى حيث توجد غرفة مكتبه ؛ ليتسنى له القراءة قليلا قبـــل أن يتناول العشاء ويشغل نفسه قليلا بعيـــد عـــن هواجـــسه وشكوكه!.

لاحظ فاضل ذلك المظروف الموجود على طاولـــة مكتبـــه والمكتوب عليه بخط اليد " إهداء ألى اخي الدكتور فاضل مـــن أخيك د/ أيمن بكر.. أرجو ان ينال اعجابك "

تذكر أن صديق عمره د/ أيمن قد أهدى له ثـــاني أعمالـــه الأدبية في هذا المظروف.. ولكن وقته لم يسمح له فى أن يطلع عليه.. "خلينا نشوف فيه ايه على ما تشرف الهانم" قالها بصوت مسموع وهو يفتح المظروف ليخرج منه الكتاب، ويقرأ عنوانه " **الخيانة.. مسألة مبدأ**"، أذهله العنوان بعض الشيء.. وقـــال لنفسه "هو أنا ناقص يا أيمن".. فتح فاضل الكتاب وبدأ يقرأ في أول صفحة من الكتاب.

" لماذا قتلتها ؟ هل أنت غبي لهذه الدرجة حتى تـــسألني هذا السؤال ؟؟ انها "مسألة مبدأ" لا أكثر ولا اقل... نعم لقـــد

كانت جريمة كاملة وكانت حديقة منزلي هي آخر مكان ممكن أن يشتبه فيه أحد بوجود جثتها ؟؟ قالها حمدي بهدوء لطبيبه النفسي وهو يستلقي امامه على تلك الاريكة المصنوعة من الجلد.. يداعب رأسه الذي دب الشيب فيه منذ زمن... " هل كانت تعتقد أني مغفل أو "أحمق" ؟؟ أو أني رجل بلا كرامة أو مبادىء ؟؟ تلك الحيوانة تستحق أكثر من ذلك!! نعم لقد قمت بتقطيعها بنفسي طوال الأربعة والعشرين ساعة الماضية قطعة قطعة بالساطور واستمتعت كلابي "البيت بول" ببعض من لحمها الطري الخبيث.. أما الباقي فقد قطعته إلى قطع اصغر وأخفيته في حديقة منزلي الخلفية مستخدماً هذا السكين !!

أخرج حمدي السكين من جيبه وعليه آثار من الدماء ولوّح به في وجه طبيبه وقال وهو ينظر بجدية في عينيه " أنت لا تصدقني أليس كذلك، تعتقد اني مجنون يهلوس" تسمرت عين الدكتور على السكين وحاول أن يفتح فمه ليقول اى شيء عندما نهض حمدي فجأة من على الأريكة وهوى بالسكين الحاد على رقبة الطبيب الذي بدوره شهق شهقة النهاية.

انتفض جسد فاضل وتوقف عن القراءة وسقط الكتاب من يده عندما قاطعه صوت ارتطام بالدور السفلي.. " لازم الست شرفت " قالها وهو يحاول السيطرة على نفسه وهو ينظر إلى ساعته ليتفقد الوقت..

لا يدري فاضل لماذا تذكر الآن كلمات مدام "ألفت" اليوم في عيادته وهي تقول له " وطبعا لما بروح البيت ولا كـــأن أي حاجه حصلت، برجع أحضر الاكل وأقعد اتعشى أنا وجوزي ونقعد بعد كده نقزقز لب قدام التلفزيون سوا!! "..

إلى هذا الحد ممكن أن تصل المرأة لعـــدم احتـــرام نفـــسها واحترام بيتها وزوجها.. صحيح "يستاهلوا الدبح"

- أخذ ينادى بصوت عالي..كاتي.. كاااااتي.. انت جيتي!

لم يتلقى فاضل اي اجابة وكأنها تحاول أن تتجاهلـــه.. الى هذا الحد.. بعد كل ما قدمه لها وبعد كل هذه السنوات مـــن الحب والوفاء و.. العطاء.. ولكن هل سيسمح لنفسه ان يعيش معها هكذا متجاهلا كل شيء .. وكأن كـــل شـــيء علـــى ما يرام ؟

أم تكون له " مسألة مبدأ" مثل حمدي بطل رواية د/ أيمن؟.

لقد تكرر خروجها من البيت وتجاهلها له معظـــم الوقـــت وكأنه لا وجود له...

"لا مش هيحصل ابداً.. انا اسف.. مـــش انـــا".. قالهـــا بغضب وهو يفتح درج مكتبه ويخرج منه سكين صغير كان قد اشتراه لرحلات التخييم مع اصدقائه في صحراء شرم الـــشيخ ونهض من على المكتب وقد اتخذ "القرار".. كانت عيناه تلمع بشرر ووجهه كأنه قطعة فحم متّقد!

لحها وهو يترل من على السلم تنهي ما تبقي من الطعام في المطبخ " طبعا جايه نفسك مفتوحه من بره " قالها ودماغه تزداد غليان وهو ينظر إليها نظرة "وداع" !!!

كان ظهرها إليه عندما وصل إلى الطابق الأرضي. لم تشعر بخطواته وازدياد ضربات قلبه وثقل صوت أنفاسه وهو يقترب منها بهدوء ويخفي السكين خلف ظهره..

لم ينتبه فاضل إلى حقيبته الملقاة على الأرض إلا بقدمه وهي ترتطم بها فيسقط علي وجهه ويطير السكين من يده.. حينــها فقط انتبهت "كاتي" إليه وتركت طعامها وأسرعت لتــستفحص ذلك الشيء الذي يلمع على الأرض بجواره ثم ذهبت اليه وهي تنظر في عينه ولسانها "يلعق" الدماء التي سالت من يـــده إثـــر ارتطامها في حافة الطاولة الزجاج !!!

حارس الأمن

عمله هو أن يراقب.. لكنه لم يكن يعلم أنه هـــو الآخـــر مراقب!!

كان داكن البشرة.. يرجع ذلك إلى جـــذوره الـــسودانية، وزنه يتعدى الـــ ١٨٠ كيلوجرام!!

يجلس طوال اليوم لا يغادر كبينة الحراسة التي تشبه القفص الحديدي إلا للذهاب لدورة المياه خلال دوامه الذي يمتد لعشر ساعات يوميا،حتى الشطائر التي كان يحضرها معه في كـــيس بلاستيكي مغطاة بأوراق صحف اليوم السابق (التي يحرص على قراءة كل كلمه فيها خصوصا صفحة الفن) كان يتناولهـــا في تلك الكابينة التي لا تتعدى متر ونصف.

إنه الحارس المكلف بحراسة أحد البنايات التي تطـــل علـــى النيل. والتي يسكنها عِلْيةُ القوم.

كان مشغولا بالتأمل في صورة هيفاء وهبي في مجلة النجـــوم التي يحرص على شرائها كل يوم أربعاء من الكشك الموجـــود

على ناصية شارعه... بينما كان يمسك بيده الأخرى برغيـــف بلدي محشو بالطعمية تحيطها حديقـــة مـــن أوراق الجـــرجير الخضراء.. يأخذ قطمه فيقع ربعها على قميصه الرمادي الـــذي يكاد أزراره أن تنطلق من مكانها كحبات الفـــشار في المقـــلاة ،المكتوب على يساره " الشركة الذهبية للخدمات الأمنية " غير مبالي بالتقاط الفتات مرة أخرى.. كان ذهنه شارد مع الصورة التي أخذ يحدق فيها لمده تجاوزت العشر دقائق بدون أن يرفـــع عينه عنها إلا لإلتقاط الشطيرة الثانية من الكيس.. ملقيًا بأوراق الصحف التي تبقت من الشطيرة الأولى بإهمال علـــى أرضـــيه الكابينة بعد أن كورها بكفه الغليظ..

لكنه لم يكن ليراهم من هذه الزاوية !!

وقفوا الثلاثة يتهامسون على بعد حوالي خمسة أمتـــار مـــن كبينة حراسته الحديدية... كان يحمل أحدهم هو الآخر كيس بلاستكي أسود داكن من الصعب رؤية ما بداخلـــه.. ألقـــى أحدهم بعمله معدنية في الهواء ثم التقطها مرة أخرى.. لكـــن أحدهم لم يعجبه الوجه الذي استقرت عليه العملة... فأصر أن يلقيها صديقه مره أخرى.. وفعل الأخير..لكنها استقرت على نفس الوجه.. فلم يجد إلا أن يستسلم لحظه... فـــتح الكـــيس الذي كان يمسك به وأخرج منه شيء أخفاه بـــسرعة خلـــف ظهره ثم اتجه بخطوات ثابتة نحو فرد الأمن في كبينته.

كان الآخر مازال مشغولا في أحلامه مع هيفاء والصور التي التقطت لها من آخر فيديو كليب تقوم بتصويره والذي انفردت المجلة بنشر لقطات منه قبل عرضه في التلفاز... لم يشعر بخطواته وهو يقترب منه في الظلام إلا عندما ضرب له الأخير بكفه على النافذة الصغيرة الموجودة بجانبه... ففزع الحارس وألقى بالمجلة على الأرض ووضع عليها قدمه... وانتفض من مكانه وعينه معلقه بالنافذة يحاول أن يعرف مَنْ... لكنه فاجأه وهو يفتح الباب عليه بسرعة ويخرج يده بهدوء من خلف ظهره!!

لحظات تجمد الدم في عروقه ثم ما لبث أن هدأت أنفاسه عندما قال له الأخير:

- "إيه بس اتخضيت كده ليه!! مجله النجوم برضه... مين المُزَ دي هيفاء ولا نانسي؟ خذ مني انا جايبلك موز مستورد هيعجبك قوي !!"

وغمز له بعينه.

أخذ الحارس الموزّه باستسلام من أحمد سلامه ابن صاحب مصنع من مصانع الحديد في مصر والذي يسكن في الطابق الثامن من البناية التي يحرسها.. وبدأ ريقه يجرى.. بينما خرج أحمد من عنده وذهب إلى أصحابه... التقت الحارس المجلة مرة

اخرى من على الارض ووضعها على فخذيه بينما انشغلت يده في تقشير الموز... ووقف أحمد وتامر يقفزون من على الأرض يضحكون بصوت عالي يقلدون صوت القرود ويضربون على صدرهم بأذرعهم الصغيرة مثل كينج كونج بينما تسحب وائل وألقى بصاروخ صغير في كابينة حارس الأمن .. سرعان مـــا انفجر بصوت عالي سقط من أثره الحارس على الأرض بجانب ما تبقى من شطيرته وقصاصات الـــصحف المتـــسخة وأوراق الجرجير.

بنت عرعر

(مبنية على قصة واقعية)

أمل هي أخر شعاع للأمل في ردهة الحياة المظلمة..

البرد قارص فظيع، والأطراف كلها مجمدة ترتعش، وقـــوة الرياح تُحدث أزيزا مخيفا وهي تعبر خلال الفتحات الـــصغيرة والكبيرة -أيضًا- في ذلك البيت المصنوع من الصفيح من بقايا مخلفات ورش الخراطة، والذي يبعد عن المدينة الرئيسية حـــوالي ٥ كيلومترات فقط في مدينة عرعر التي تقع في أقـــصى شمـــال المملكة العربية السعودية على الحدود العراقية.

تلك الليلة الأكثر برودة وقسوة من الليالي الخمس الماضـــية جعلت من الصعب بل من المستحيل على أمل وأخواتها الثلاث البنات بيدنهم النحيف وملابسهم المتهرئة ان يخلدوا للنوم،تلك الظروف المناخية التي اجتاحت العالم العربي خلال الأيام الخمس الأخيرة كانت مفاجئة للجميع، نسمع مذيع النشرة الجويـــة في الأخبار وهو يقول إنها موجة صقيع قادمة من سيبريا. لكـــن لم

يكن مهما لأمل وأخواتها معرفة مصدر هذا البرد ولكن ما كان يشغل رأسهم هو كيفية مواجهته!

استلقت أمل على جنبها الأيمن على الحصيرة المصنوعة من الخوص والتي تغطيها ملاءة تملؤها الثقوب أكثر مما تغطي به تلك الحصيرة، كانت تلتصق بجسد أختها الكبرى عتاب لعلها تدفئه ،فقد أصيبت عتاب منذ يومين بحمى فظيعة كان ينتفض منها جسدها الهزيل بينما تشتعل رأسها من حرارة تجاوزت ال٤٠ درجة.

أخذت همس أمل في اذن أختها بأغنية شعبية قديمة كانوا معتادين أن يرددوها سويا وهم يرعوا أغنامهم في الأراضي الخالية المجاورة لبيتهم بعد صلاة العصر من كل يوم. كانت تلك الأغنية تدور عن أحد الأمراء الذي ضاع في الصحراء أثناء رحلة للصيد، فتجده فتاة فقيرة فاقد الوعي على رمال الصحراء من شدة الشمس فتسقيه جرعة ماء فيفيق ويقع في حبها ثم يقرر أن يتزوجها، وتعيش معه في قصره الفخم. كانت تسمع عتاب صوت أمل العذب- الذي يرتعش أيضا من شدة البرد- في أذنها فتنسيها الأغنية الآلام التي تحس بها في أجزاء متفرقة من جسدها وهي تتخيل نفسها تلك الفتاة التي يتزوجها ذلك الأمير الثري. ولكن سرعان ما تتبدد أحلامها على صاروخ من الهواء البارد الذي تسلل من فتحة موجودة في أحد ألواح الصفيح كانت تسدها قارورة ماء بلاستيكية فارغة طارت من شدة الهواء

ليلسع وجهها الدافئ الهواء البارد فينتفض جسدها مرة أخرى من شدة الحمى فتقرص أمل بيديها الصغيرتان التي كانت تلفهما حول أختها لتهدئ من انتفاضة جسدها بينما تسرع الأم إلى إناء صدئ بجوار عتاب لتخرج منه قماشة صغيرة وتضعها على جبينها. ولا تمضي دقيقتان حتى تكون تلك القماشة ساخنة مثل تلك المناشف التي يقدموها للركاب المسافرون في الدرجة الأولى ليمسحوا بها وجوههم بعد إقلاع الطائرة!

أخذت الأم تكرر تلك العملية — تأخذ قطعة القماش فتبللها بالماء الموضوع في الإناء وتعصرها بيديها الخشنتين ثم تضعها مرة أخرى على جبين عتاب وهي تتمتم ببعض الآيات القرآنية، إلى أن انخفضت الحرارة قليلا وهدأت الرعشة، بعدها قامت وأسندت ظهرها إلى أحد الصفائح المصنوعة من الألمونيوم التي تحيط بذلك البيت وهي تنظر إلى بناتها الأربعة المستلقين أمامها على الارض والدموع تعرف طريقها من عينيها إلى التجاعيد التي تملأ وجهها كالسيل وسط قريتهم الصغيرة.

في تلك الأثناء، كانت عيني أمل العسليتين الصغيرتان تتابع ما تقوم به الأم وهي مازلت تحتضن جسد أختها إلى ان أحست أنها هدأت وراحت في نوم عميق. حينها أفلتت يدها بهدوء من حولها وطبعت قبلة رقيقه على جبين أختها ثم تذكرت ان عليها

أن تنظف زي المدرسة "الوحيد" من إثر بركة المياه التي سقطت فيها بالأمس والتي تكونت من آثار الأمطار التي لم تتوقف خلال الايام الماضية. وهي في طريقها من مدرستها الى حيث تعيش والتي تبعد حوالي ٢,٥ كم.

ذهبت أمل الي الصندوق الخشبي في الزاوية والتي تضع فيه أغراضها الخاصة. منها دمية صغيرة كان والدها الذي توفى منذ ٧ سنوات قد أهداها إليها. كما كان يحتوي على مقص صغير صدئ وبعض قصاصات لصور عارضات يرتدين فساتين زفاف بيضاء كانت قد وجدتها في إحدى المجلات بجوار سلة المهملات وهي إلى طريقها "لبيتها". بالإضافة إلى أعواد سواك قديمة جافة كانت في يوم من الأيام مصدر رزق أبيها مربوطة بالبطاقة الشخصية لأبيها والسبحة الخشبية التي كانت لا تفارق يده،وعلب بلاستيكية فارغة (تلعب بها مع اخواتها) تحت كل هذا قطعة من الورق المقوى الذي يستخدم لتغليف المنتجات المختلفة تجلس بعرض الصندوق.

كانت قد أخفت تحته مبلغ ٤٢ ريالاً قد ادخرته خلال العامين الماضيين لشراء جلباب جديد لوالدتها بدلا من جلبابها الوحيد البالي. وقد حان الوقت غدًا لشرائه فقد استكملت المبلغ المطلوب وتنوي أمل ان تأخذ معها النقود غدًا إلى المدرسة وفي

طريق العودة إلى المترل ستبتاع لها هذا الجلباب من محل الملابس الذي يقع على بعد عدة أمتار من مدرستها.

أخذت أمل النقود ودسّتها في جيبها بدون أن تلاحظ والدها وابتسمت ابتسامة خفيفة. كانت تعلم مدى السرور الذي ستدخله على والدها غدًا عندما تدخل عليها وفي يدها الجلباب الجديد، لقد انتظرت هذه اللحظة على مدى العامين الماضيين، كانت خلالهما تمر على محل الملابس المجاور لمدرستها من الحين للأخر وهي تتساءل هل سيعجب أمها هذا الجلباب الأحمر الذي تتوسطه وردة صفراء كبيرة ؟؟ أم الآخر الأزرق اللون المزركش بتلك الورود الحمراء؟؟ كانت كلما اقتربت من استكمال المبلغ المطلوب تجد أن الاسعار قد ارتفعت فترجع إلى البيت خائبة الظن لتعيد حساباتها مرة أخرى وتنتظر !!

رتبت أمل أغراضها مرة أخرى في الصندوق كما كانت من قبل ثم أخذت قطعة القماش الصغيرة التي كانت تبحث عنها وصبّت عليها القليل من الماء ومشت إلى ثوبها المعلق على علاقة ملابس حديدية صدئة مثبتة على مسمار صغير على أحد الألواح الصفيح. وأخذت تمسح البقع الوسخة من الطين الجاف بيدها الصغيرة التي كانت ترتعش من البرد.

بالرغم أن عمر أمل لم يتجاوز ١٣ عامًا إلا أن عقلها كان يسبق عمرها بكثير. هي البنت الوحيدة المتعلمة من بين أخواتها

الثلاث وقد كانت وصية أبيها قبل وفاته أن تستكمل أمل دراستها إلى الجامعة. فقد أحس بشغفها للقراءة والكتابة والتعلم، كما أنها قد حفظت كتاب الله وعمرها لم يكن يتجاوز التاسعة من عمرها، متفوقة دائمًا في دراستها، دائمًا ما كانت تردد لأمها أنها ستصبح يومًا ما دكتورة كبيرة تعمل في مستشفى عرعر العام، وستكسب الكثير من النقود لتعوضها هي وأخواتها عما فقدوه في هذه الحياة. وبالرغم من أن النقود التي كانت تكسبها أمهم من رعي الأغنام بالكاد تكفي طعامهم البسيط. إلا انها كانت تدخر لها القليل منها لمتطلبات دراسة أمل، فبالنسبة لها...

أمل هي آخر شعاع للأمل في ردهة الحياة المظلمة!

انتهت من تنظيف زي المدرسة الأزرق الذي تحول مع مرور الزمن إلى لون أزرق فاتح والمرقع بحرَفية بيديها الصغيرتين في أنحاء عديدة. وعلقته على المسمار الصغير. تخيلت أمل في هذه اللحظة نفسها وكأنها في مستشفي عرعر العام. وبالتحديد في عيادتها. تخيلت وهي تعلق زي مدرستها أنها تعلق عباءتها على حامل الملابس بجانب مكتبها الابيض الذي يتوسطه لوحه ذهبية صغيرة مكتوب عليه " أمل عبدالله – أخصائية أطفال" وتأخذ بيدها الأخرى البلطو الأبيض تلبسه وتجلس على كرسي أمام

مكتبها لتستعد في استقبال المرضى من أطفال المدينة والقـــرى المحيطة بها،وهي تتخيل ألواح الصفيح التي تحيط بمترلهم ملونـــة باللون الأبيض وتزينها صور أطفال جميلة وشخصيات كرتـــون معروفة. (لم تستطع أن تتخيل ما شكل شخصيات الكرتـــون لأنها لم تشاهد أي منهم في حياتها من قبل).

تدخل عليها بعد ذلك الممرضة ومعها طفل وأمه. الطفـــل خائف من الدخول إلى العيادة وأمه تُهدئ من روعه. وجهـــه شاحب من المرض. فتنظر إليه أمل بعينيها العسليتين التي ينبعث منهما نور من حنانهم الفياض. وتقوم من مقعدها متجهـــة إلى الطفل. وتسأله عن اسمه فيقول لها أنه عاصـــم ،فتأخـــذ يـــده الصغيرة في يدها. وتسأله إذا كان يحب الرقص، فيتردد الطفـــل قليلا وهو ينظر إلى والدته ثم يهز رأسه بنعم،تطلب امـــل مـــن الممرضة ان تشغل لها مشغل الكاسيت الموضوع على المنـــضدة بجانب سرير الكشف فينبعث منه موسيقى هادئة تملأ الغرفـــة، وتبدأ بالرقص مع عاصم على أنغام الموسيقى كالفراشـــة الـــتي ترقص مع الأزهار قبل امتصاص رحيقها. تأخذ تدور في أنحـــاء الغرفة ويد الصغير عاصم في يديها الذي ملأ وجهه الآن ابتسامة سرور وبهجة نسي من خلالها آلامه وخوفه.

أفاقت أمل من حلمها اللذيذ على مسكة يد أختها الصغيرة، صفاء، ذات السبعة أعوام لتذكرها انها قد وعدتها في الصباح ان تحفظ معها سورة جديدة من سور القرآن الكريم. فتبتسم لهـــا

أمل وتأخذ بيدها إلى ركن المترل حيث يوجد مصباح الإضاءة، وتجلب معها المصحف الشريف الذي دائمًا ما تحتفظ به على وسادتها. وتبدأ في قراءة سورة الشرح. وصفاء تردد بعدها الآيات. بينما تخرج الأم إلى الخارج لتتفقد حالة أغنامها في هذا الصقيع..

في تلك الأثناء، وعلى بعد ٢٠٠ متر من "بيت" أمل كانت ديما، التي في نفس عمر أمل، تجلس على الأريكة المبطنة بالجلد الطبيعي بجوار المدفئة الكهربائية تشاهد "توم وجيري" على قناة إسبيس تون. والدتها تقف بجوارها ممسكة بجهاز التحكم عن بعد تقول لها بلهجة تحذيرية أن الوقت قد تأخر وأنها ستغلق التليفزيون بعد ٥ دقائق لتقوم ديما بغسل أسنانها وتستعد للنوم. بينما كانت ديما في عالم آخر مليء بالشخصيات الكرتونية اللطيفة التي لا تذهب إلى المدرسة ولا تضطر كل يوم للنوم مبكرًا. أومأت ديما برأسها ثم ذهبت لتنفذ ما طلبته أمها،ثم بعد ذلك جاء الوقت المفضل لها. وقت حكاية ما قبل النوم. وهو الوقت المفضل أيضا لأمل!.

جلست أمها على الكرسي بجوارها ومسكت بكتاب سندريلا والأقزام السبعة وبدأت في القراءة.. كان جسدها قد بدأ يدفأ من الغطاء الثقيل وبدأ جفنها يثقل بعد عدة دقائق... حينها قبلتها أمها على جبينها وشدت الغطاء إلى رأسها ثم خرجت من الغرفة وتركت الباب مفتوح قليلا ليدخل بعض الضوء من الردهة.

هذا الموقف كانت تتابعه أمل كل يوم من ثقب صغير يقـــع في مستوى رأسها على يمينها عندما ترقد علـــى الأرض. ولأن نوافذ الفيلا التي تعيش فيها ديما مع أهلها ذات الطراز الأمريكي الواسع الذي يسمح لدخول أكبر قدر من أشعة الشمس لداخل الغرف كان من السهل على أمل أن تراهم خصوصا في الليـــل لأنهم لا يغلقون ستائر النوافذ فالأرض التي أمامهم خالية إلا من صفائح الحديد التي تعيش فيها أمل.

كانت تتخيل أمل ان تلك المرأة التي تراها كل يـــوم مـــن الثقب الصغير انها أمها.. وانها تجلس بجانبها كل يوم لتحكي لها تلك الحكايات. بل أنها في بعض الأوقات تـــسمع صـــوتها في أذنيها وهي تهمس لها بحكاية جديدة كل يـــوم إلى ان تغفـــو!! حتى انها كانت تكره العطلة المدرسية لأن ديما تسافر دوما مـــع أهلها خارج عرعر.. حينها يأتي النوم لها بصعوبة..

لم تكن تعرف "ديما" أمل.. لكن عيناهما التقتا ذات مرة عند عودتهم من المدرسة ذات يوم.. أمل بالطبع تراها كل يـــوم في غرفتها وهي تلعب مع عرائسها أو وهي تستذكر دروسها من خلال الثقب الصغير.. ترددت قليلا عندما رأتها ثم قـــررت أن تذهب لتلقي السلام عليها.. حينها رأتها والدة ديمـــا ونهرتهـــا عندما نظرت إلى ملابسها الرثة واعتقدت أنها أحد المتـــسولين الذين يطرقون الأبواب وخافت على ديما وأســـرعت بهـــا إلى داخل منزلهم!

تتذكر أمل في بعض الأحيان ذلك الموقف.. وتلوم نفسها على ما فعلته.. لكنها تقول بعد ذلك أنها كانت تحس بأن هذه البنت أخت لها وأنها أرادت فقط أن تلقي التحية عليها.. وفي بعض الأحيان تلوم أم ديما بينها وبين نفسها على ما صدر منها في ذلك اليوم لأنها تعتبرها قدوة لها من حكم معاملتها لديما في المترل.

في الصباح نهضت أمل مع سماع صوت الفجر.. استيقظت في هدوء حتى لا تزعج باقي أخواتها بينما أمها في الخارج تحضر بعض الفحم لتوقده.. فقد ازداد الجو برودة بشكل لم يعتادوا عليه من قبل وخصوصا في هذا الوقت من العام.

وضعت يدها الباردة على جبين أختها التي كانت ترقد مثل طفل صغير لتتحسس الحمى، لقد خفضت حرارتها.. حمدت الله ثم طبعت قبلة رقيقه على جبينها،مازالت أطرافها ترتعش من برودة الجو، اطمأنت على أختها الأخرى صفاء وشدت الغطاء على جسدها الضئيل.. انه اليوم الذي انتظرته عامين كاملين لتدخل الفرحة ولو لدقائق بسيطة على والدها.. هي لا تتذكر آخر مرة اشترت فيها أمها شيء جديد أو حتى قديم من سوق الملابس المستعملة لتلبسه..

وضعت يدها في الإناء المملوء بالماء في زاوية البيت لتغسل وجهها وتتوضأ لكنها أسرعت بإخراجه بسرعة منه.. فالماء بارد

كالثلج.. تيممت من التراب الذي يملأ الأرض من تحت ساقيها.. صلت الفجر ثم رفعت يدها وهمهمت بأدعية الصباح كما تفعل كل يوم.. بعد قليل دخلت عليها والدهما وفي يدها إناء من الحليب أحضرته من الماعز بالخارج وسخنته على الفحم الذي اشتعل بصعوبة.. وناولتها بيدها الأخرى قطعة من الخبز.. وجلست بجانبها على الأرض ثم نظرت إليها بعيون لم يزرهما النوم منذ فترة طويلة قائلة:

- اجلسي يا أمل.. اعتقد مازال لدينا بعض الوقت لنتحدث قليلا؟

- نعم يا أمي بالتأكيد..

- هل تعلمين أني كنت أحب والدك حب شديد؟

كانت أول مرة تسمع فيها أمل كلمة عن الحب من والدهما.. فأين سيتواجد مثل هذا الإحساس المرهف تحت غمامة الفقر والحاجة.. ثم أكملت:

- عبدالله كان رجل بحق.. لم يكن يجعلني أحتاج لأي شيء مهما كان.. رغم دخله القليل من بيع أعواد السواك أمام المساجد والأسواق.. تعلمين أنه ولمدة سنوات زواجنا التي زادت عن خمسة عشرة عاما كان يأتي لي بهدية في يوم عيد ميلادي من كل سنة!!!!! آخرها كانت هذا الخاتم!

وضعت يدها في داخل ثوبها وفتحت قطعة من القماش على شكل صرة محاكة بثوبها ثم أخرجت منه خاتم بسيط لونه يكاد يكون ذهبي من عيار ١٨ ووضعته في يد أمل ثم أردفت:

- أنه خاتم مصنوع من الذهب.. لابد أن أباك أخذ يـــدخر لعدة سنوات حتى يشتريه لي.. إنها آخر هدية تلقيتها منه قبـــل وفاته وكأنه كان يريد أن تنتهي حياته وهو يقـــدم لي أغلـــى هدية..

سكتت الأم قليلا وهي تسترجع ذكريات ذلـــك اليـــوم ثم قالت:

- أنا أريدك أن تأخذيه !

- لا يا أمي..

- خذيه يا أمل ضعيه في إصبعك.. انت أعز بنت لوالدك.. وأمله وأملنا في هذه الحياة.. فلا تخيبي أملنا فيك.. يا دكتـــوره أمل.. سترسم الحياة على وجوهنا بسمه اخرى كتلك البـــسمة التي أراها في وجهك هذا الصباح..

وقفت الأم وجلبت زي المدرسة الخاص بأمل إليها قائلة:

- هذا هو طريقنا إلى حياة أفضل بعد الله سبحانه وتعالى !

ثم ناولته أبها وهي تقول:

- بالمناسبة.. اليوم عيد ميلادي!

طوال الطريق كانت تتحسس أمل النقود الموضوعة في جيبها الأمامي.. عدقمم أكثر من مرة لتتأكد أن البائع لن يردها خائبة هذه المرة.. وتأكدت الأسبوع الماضي أن سعر الفستان الذي تنوي شراءه لأمها مازال سعره ٤٢ ريال.. أما الخبر الذي أدخل السرور أكثر إلى نفسها أنها علمت بأنها ستعيد إحياء عادة والدها بشراء هدية لأمها في عيد ميلادها من كل سنة.. ياه.. كم ستفرح أمي.. هكذا قالت لنفسها وهي تسرع من خطواتها التي كانت ثقيلة كدمية خشبية تحاول المشي بسبب هذا البرد القارص الذي لم تمنعه الملابس الخفيفة من اختراق جسدها الضئيل كالسهام الحادة..

راودتها فكرة أن تكون قد علمت أمها بالمفاجأة التي تحضرها لها.. ألهذا السبب ذكرت لي هذه القصة؟ ألهذا أهدتني أغلى هدية تمتلكها في عالمها؟؟ لكنها طمأنت نفسها لأنها لم تخبر هذا الموضوع لأخواتها أو حتى زميلاتها في المدرسة.. وكانت تحتفظ بحلم هذا اليوم مثل الحلم الذي يراودها وهي تعمل كطبيبة في مستشفى عرعر العام في مكان سري بقلبها..

مازالت برك المياه تملأ أنحاء متفرقة من الطريق اضطرتها في كثير من الأوقات أن تغير مسارها.. لم تساعد هرولتها في تدفئة

جسدها.. الشمس تنظر من الأفق كأنها من وراء ستارة بيضاء بلا شعاع أو حرارة.. الغيوم تملأ السحاب كقطع القطن المتناثرة.. بينما أخذت رعشة أطرافها تزداد..

أخذت المسافة التي تقطعها من سكنها إلى المدرسة في استنفاذ الطاقة التي استمدتها من كوب الحليب وقطعة الخبز.. بدأت تشعر بارتفاع حرارة رأسها.. هل مرضت ؟ تمنت أن لا تكون كذلك ! وقالت لنفسها أنها ستشعر بالدفء فور وصولها للمدرسة.

بدأ يتراءى لها المبنى من بعيد.. دقائق قليله وتهدأ رعشة أطرافها وتعود الدماء الدافئة في السريان بعروقها..

وصلت إلى المدرسة وصعدت الدرج المؤدي إلى فصلها بصعوبة مرتكزة على ترابزين السلم بيدها اليسرى.. دخلت الفصل ورأت أنه مازال خاليا إلا من بنتين تغامزتان حين رأوها لكنها كانت معتادة على مثل تلك الغمزات والهمسات الجانبية من زملائها.. تزعجها ؟ بالتأكيد تزعجها وتنغص عليها هدوءها.. لكنها لم تكن تفعل أي شيء تجاههم.. كان يدفعها ذلك للاجتهاد والتفوق عليهم بفارق أكبر كعادتها كل عام.. لكن اليوم علت وجهها ابتسامة لم يروها على وجهها من قبل.. فاقتربت إحداهن منها وقالت له بلهجة ساخرة :

- ماذا يُضحككِ أيتها البلهاء هل سمعتينا نقول نكته !

أزاحت أمل بوجهها إلى حيث مقعدها وهي تلتقط أنفاسها وتحاول أن تُهدئ من رعشة جسدها مستسلمة لحرارة الغرفة..

- لماذا لا تنطقين ؟؟ هل بلعت سواك من مساوك أبيك !!

انطلقت ضحكة البنت الأخرى في الغرفة بينما دفعت نور أمل دفعة لم يتحملها جسدها الضعيف الـــذي انهكـــه الـــبرد والجوع فسقطت على الأرض وطار الخاتم من يـــدها ليـــستقر بجانب قدم البنت الأخرى محدثا رنة على البلاط فالتقطته وهي تقول:

- انظري يا نور ماذا وجدت على الارض!

قالت أمل بصوت يرتعش:

- هذا الخاتم ملكي أعيديه لي لو سمحت!

- لا اعتقد انه ملكك يا عزيزتي.. فأنتم لا تملكون النقـــود الكافية لشراء ملابس جديدة لك ؟؟ فما بالك بخاتم مصنوع من الذهب ؟؟ أعتقد أنه سقط من إحدانا في الصف..

ثم نظرت إلى نورا بابتسامة كابتسامة الشيطان وقالت :

- ألم تفقدي خاتم ذهبي هذا الصباح يا نورا..

تظاهرت نورا بأنها تتفقد يدها ثم رفعتها قائلة:

- نعم بالفعل انظري ! أشكرك أنك وجدتيه..

حاولت أمل النهوض لكنها لم تستطع.. فقد زادت درجة حرارتها وانهارت قواها تماما.. كان يملؤها غضب لم تحسه من قبل لكنها رقدت على الأرض كالعصفور الصغير منكسرة الجناحين والخاطر..

- إنه لأمي.. أرجوكم أعيدوه لي.

- وكيف تستطيع راعية غنم أن تحصل على مثل هذا الخاتم؟

ثم غمزت لصديقتها وأردفت :

- ربما....

قطعها صوت غليظ من خلفها :

- يكفي يا حمقى ! أعيدوا لها خاتمها !

- أم فوزان!! وما دخلك أنت بهذا ! اذهبي لعملك.. اذهبي وتأكدي من نظافة المرحاض!

ما أرادت أن تفعله أمل فعلته أم فوزان عاملة النظافة في المدرسة .. فقد هوت بصفعة على وجه نورا ثم خطفت الخاتم من يد البنت الأخرى وساعدت أمل على النهوض وأجلستها على دكتها بينما أخذت تتوعد كلا من نوار وزميلتها لأم فوزان التي ما أن نظرت في وجه أمل الشاحب كالموتى حتى

أحست بأنها ليست على ما يرام.. تحسست جبينها على الفور وأسرعت تحملها.

- أنت مريضة يا أمل.. ما الذي أتى بك في هذا الطقس ! سأخذك إلى طبيبة المدرسة!

- بقيت أمل عند الطبيبة طوال اليوم، وضعت لها بعض التحاليل لتخفض من ارتفاع حرارتها وتزويد جسمها بالطاقة اللازمة لمقاومة المرض..

- انتهى اليوم وعرضت طبيبة المدرسة أن توصل أمل إلى بيتها لكنها أبت وتظاهرت بأن حالها أحسن.. تحسست النقود التي في جيبها وخرجت خارج المدرسة إلى محل الملابس الذي يبعد عن المدرسة دقائق قليلة.. ازدادت برودة الجو لكن ما كان يشغل رأس أمل أهم من مرضها..

أخذت تتجول بعينها في داخل المحل بإعجاب وكأنها تشاهد تماثيل أثرية منحوتة بدقة عالية في متحف راقي.. كانت تعرف ما تريد فأخذت الفستان الذي طالما حلمت بإهدائه الى والدتها.. دفعت النقود ثم خرجت على عجل..

احتضنت الكيس البلاستيكي وبداخله الفستان الأزرق اللون المزركش بورود حمراء وكأنها تحتضن كنز ثمين تخاف عليه من السرقة أو كأم تحتضن رضيعها في الزحام خوفا عليه من الضياع.

ربما سيأتي عليها هي أيضا ذلك اليوم الذي تحتضن فيه فستانها الأبيض ليلة زفافها.. كالفساتين التي تحتفظ بصورها في صندوقها الخشبي!

كم سيكون جميلا عليها هذا الفستان وهي تجلس به في قاعة الأفراح وسط أصدقائها تتوسطهم أمها الفخورة بها وأصوات الطبول والتهاني تملأ المكان..

أخذت تتخيل أمل مشهد ليلة عرسها وتخيلت،أيضا، أمها وهي تلبس هذا الثوب في عرسها رغم أنه ليس بثوب للسهرة..

حينها بدأت تشاهد منظر لم تراه من قبل.. في البداية تخيلت بأنها تهذي بسبب الحمى التي بدأ ينتفض لها جسدها مرة أخرى.. حتى انها بعد عدة دقائق وجدت صعوبة في احتضان الكيس البلاستيكي..

أحست أنها في حلم جميل فقد كانت السماء تسقط عليها شيء أبيض خفيف في البداية. كأن السماء تمطر حلوى قطنية كالتي يأكلها الأطفال.. ثم بدأت هذه الحلوى في الهطول بسرعة وبكميات أكثر.. إنها المرة الأولى التي ترى فيها أمل ثلج يتساقط من السماء.. بل إنها المرة الأولي في تاريخ عرعر الذي يتساقط فيها الثلج وكأنها بلدة اوروبية في منتصف فصل الشتاء..

بدأت أمل تحس بصعوبة في المشي وكأنها تمشي في بركة من الطين من أثر الثلج الذي بدأ يغطي الشارع.. بدأ جسدها يثقل.. البرد يفتت في جسدها والثلج يتساقط على وجهها الحار فلم تعد تحس ما إذا كانت تشعر بالبرد أو بالحر.. بدأ جسدها الضعيف في الانهيار.. ثم سقطت برأسها للخلف.. سقطت كأنها تسقط على مرتبة مصنوعة من ريش النعام..

لكنها تشبثت بهدية أمها التي سترتديها في عرسها.. هدية أمها التي سترتديها اليوم في عيد ميلادها..

- أخذت عيناها التي كانت تبحلق في السماء وهي مستلقية على ظهرها تشاهد الثلج وهو يتساقط عليها وعلى وجهها ابتسامة ثابته وفمها مفتوح والثلج يغطيها كفستان عرسها الأبيض.

العجوز والجاروف

الخفر لا ينتهي وكذلك نظراته الغاضبة..

أمضى توفيق حامد اليومان السابقان في اضطراب مستمر وقلق.. ضعفت خلالهما شهيته.. وتقطع نومه.. واضطربت معدته.. إنها المرة الأولى التي سيسافر فيها إلى خارج مصر في بعثة إلى دولة الهند لمدة ٣ أيام ليلقي فيها بعض المحاضرات عن الحضارة الفرعونية في أرقى جامعات نيودلهي.

ما سبّب كل هذه الاضطرابات والانفعالات هو ان ذهنه كان مشغول بعد ان وقع اختيار عميد الكلية عليه ليقوم بهذه المهمة بذلك الاختراع الذي يطلق عليه.. الطائرة! كيف سيصعد في هذا الشيء المصنوع من الألمونيوم .. ويحلق به في السماء .. بل الأدهى كيف سيبقى هذا الشيء معلق لمدة خمس أو ست ساعات في السماء يغوص من سحاب إلى سحاب آخر!

ما زاد تلك الاضطرابات رؤيته خلال الليلتين السابقتين لكابوس اعتاد ان يحلم به منذ عدة شهور.. هذا الكابوس كان ينغص عليه حياته .. فهو لا يستطيع ان ينام بعد رؤيته له .. ودائما ما يستيقظ منه وهو غارق في عرقه .. ينتفض من البرد.. قلبه يدق- كقلب رضيع- بسرعة عجيبة.. ينظر إلى الساعة فإذا هي الثانية صباحا..

لا يعرف بالضبط متى يبدأ هذا الكابوس .. لكنه يبدو طويلا. وفي كل مرة يستيقظ منه في نفس الوقت.. الساعة الثانية صباحا .. حينها يضطر ان يغادر غرفة النوم في الحال قبل ان تناله يد الرجل العجوز من تحت سريره بأظافره القذرة السوداء التي يملؤها الطين ويده التي تمسك بجاروف قديم يده كفرع شجرة عتيقة.. كأنه كان يحفر قبر احدهم في حديقة منزله الخلفية او ربما يحفر قبره هو!

بعدها يدخل غرفة المعيشة ليجلس على الأريكة وهو يتلفت حوله كأن احدهم يراقبه في صمت من مكان ما في الغرفة.

في بعض الأحيان يرى خياله على الحائط.. مجرد خيال لوجه عريض يحيطه شعر أشعث طويل يتحرك بسرعة.. يقنع بعدها نفسه أنها مجرد خيالات في رأسه لكن عقله لم يكن ليصدق كلامه.. ويبقى على هذا الحال حتى ساعات الصباح

الأولى إلى ان يذهب إلى الجامعة حيث يدُرس التاريخ لطلاب جامعة القاهرة.

أحيانا يسمع صوت الجاروف في أذنه، خصوصا في الليـــل وهو يشاهد التلفاز، وهو يضرب في الأرض ليحمل التراب ثم صوت التراب وهو يترلق من رأس الجاروف المعدنية ليترل على الأرض حول الحفرة..انه نفس صوت الذي يصدر عن المنخل الحديدي الذي يستخدم لإزالة الشوائب من الرمل.. صــوت يصيب الجسد بالقشعريرة. فكان عند سماعة له يرفع من صوت التلفاز .. فيتلاشى الصوت تدريجيا كأن الرجل الــذي يحفــر الحفرة يغادر المكان بخطوات بطيئة.. أما إذا لم يجــدي رفــع صوت التلفاز، كما يحدث في كثير من الأحيان، فأنــه يغــادر مترله في الحال ويسرع إلى الشارع ليختلط بالناس في أي مكان مزدحم .. أي مكان ليمحو صوت الجاروف وهــو يحفــر في الأرض كأنه يحصد نبات شيطاني من رأسه!

كل ما يتذكره من الكابوس ان هذا الرجل العجوز يقــف على مسافة ليست ببعيدة منه .. ربما مسافة ٣ أمتار في مكــان مظلم يضيئه القمر من فوقه وحوله تحيطه أشــجار كثيفــة .. يحدق في عينه ويديه تمسك بالجــاروف، مــشغولة بــالحفر.. وبالقرب منه ٥ غربان يلقي لهم بدود حي من الأرض كل فترة بدون أن ينظر إليهم وكأن احدهم، في الحفرة، يضع له هــذا الدود على الجاروف.. هذا الرجل العجوز لا يفتح فمه بــأي

كلمة كما ان باقي جسده لا يتحرك .. فقط يديه تحفر كالآلة وعينه تحدق في عين توفيق كعين تمثال إغريقـي.. وتعـبيرات وجهه مليئة بالغضب .. كبركان على وشك ان ينفجر في أي لحظة ..

الحفر لا ينتهي وكذلك نظراته الغاضبة..

توفيق واقف في مكانه .. مجبر على ان يشاهد هذا الرجـل بسهام نظراته الغاضبة التي ترسل إليه إشارات يقف لها شعر يده الخفيف... أما الغربان فصوتهم جهوري.. يـستمتعون بأكـل هذه الديدان وهم يقفزون على أرجلهم ليلتقطوا ما يلقي لهـم الرجل العجوز كل حين..

تتحرك أغصان الأشجار الكثيفة في المكـان مـن حولـه كالثعبان وكأنها هي الأخرى تريد ان تفتـك بجـسده .. ان تعتصره أولا ثم تلقي به في الحفرة ليلتهمه الدود قبل ان يغطيـه الرجل العجوز بالتراب.

بعد قليل .. تبدأ الصورة في التغير .. ويشعر توفيـق انـه يقترب من الحفرة كأنه واقف فوق بساط يجذبه شخص خفي من أمامه بهدوء .. قدماه لا تتحركان .. ثابتتان كالـشوك.. لكن أحدهم يقربه من العجوز ذو الأظافر السوداء العالق فيهما الطين.. كلما اقترب، كلما وضحت ملامح وجهـه الخبيـث

كالمجانين الذين يعيشون أسفل الكباري .. وجهه يملائه التجاعيد وعينه لا ترمش أبدا..

يقترب من الرجل العجوز بدون ان تتحرك قدماه.. احدهم يجذب البساط الذي يقف عليه .. بساط مصنوع من الطين .. تبدأ رائحة أنفاسه الكريهة تملئ انفه .. إنها كراحة كلب متعفن يسمع صوت الأغصان وكأنها تتعارك بسيوف خشبية .. لكن بغضب .. ثم تبدأ أغصانها بالتلوي وتبدأ حلقة الأشجار المحيطة به تلامسه .. كأنه وقع في مصيدة.. العرق يتصبب من رأسه ودموعه تبدأ في التسلل من عينه الواحدة تلو الأخرى بدون ان يشعر.. يده لا تتحرك ثابتة كالوتد لا تستطيع حتى ان تزيح أغصان الأشجار التي بدأت في جرح جلده ووجهه بأوراقها التي أصبحت الآن حادة كشفرات الحلاقة!

الرجل العجوز منهمك في الحفر .. يده الجافة التي توحي لك ان جلده سيسقط منها في أي لحظة على الأرض ..وان حدث فانه لن يبالي!

توفيق يسيل من وجهه الدم الذي أحدثته أوراق الأشجار الحادة.. يقف في مواجهته الرجل الكئيب المرعب على بعد شبر منه ..حينها يبدأ العجوز في فتح فمه بهدوء كالذي يفتح مقبرة محكمة الغلق منذ سنوات .. ويخرج منه رياح قوية يحس بها في جراح وجهه فيزداد شعوره بالألم .. مع رائحة العفن الكريهة التي تنبعث من فمه مع هذه الرياح.

ثم يرفع الجاروف إلى أعلى ويهوي به على ساقه .. ليصرخ توفيق من الألم ويختل توازنه ويسقط في الحفرة الـتي يحفرهـا العجوز.. بعدها تبدأ حركة أغصان الأشجار في الـسكون .. ويقل نهيق الغربان، الذي ملأ المكان، بنظرة من العجوز وكأنه يطمئنهم ان المهمة تمت وانه اخذ بثأرهم جميعا.. ويبدأ في إلقاء التراب الذي تكوم حول أطراف الحفرة عليه.. مبتدأ بـأعلى رأسه .. فتنغلق فتحة انفه ويحاول ان يزيل التراب بيـده الـتي جلست بجانبه بلا حراك..

يختنق ..

يختنق كالذي وضع رأسه في كيس بلاستيكي مليئ بالماء!

تمر عدة ثواني حتى يعود إلى وعيه مرة أخرى ... يعـود الى عالم الأحياء ... يلتقط أنفاسه بصعوبة.. سـعيد بأنـه مجـرد كابوس وفي نفس الوقت ينتفض من الرعب.. غارق في عرقه.. وكلمات العجوز التي سمعها وهو تحت التراب تـرن في أذنـه كصدى الصوت.. بصوته العميق الـذي يـشبه الأشـخاص "الملبوسين"

" انتعشششش" .. " انتعشششششش" .. أنا أيـضا أحب ان انتعشششش"

استيقظ توفيق مذعورا على يد تربت على كتفه و على نفس صوت الرجل العجوز العميق.. ثم بدأ النور الخافت يتسلل إلى عينيه ليكشف له ملامح مصدر ذلك الصوت ..في البداية لم يفهم شيء من كلام الرجل ..الذي رأى ذلك في تعبيرات وجهه، فأعاد عليه سؤاله مرة ثانية:

- " ممكن اخذ الجريدة؟"

للحظات بدى له وجه الرجل الجالس في المقعد بجانبه في الطائرة المتجه إلى نيودلهي كوجه نفس الرجل العجوز في الكابوس .. لكن هذا الرجل كان مرتب الشعر حليق اللحية ينبعث منه رائحة عطر فاخر .. ورغم ان ملامحه اقرب الى الهنود إلا ان لكنته كانت مصرية مئة في المئة.

- الجريدة! ..بالطبع، تفضل ..

ناوله توفيق الجريدة من جيب ظهر الكرسي أمامه ثم نظر في ساعته.. واخذ يلوم نفسه وعينيه بالتحديد.. كيف أمكنه ان يغفل هكذا وهو على بعد ألاف الأمتار من الأرض !! لقد أقلعت الطائرة منذ ساعة تقريبا .. لابد انه التعب لكن .. كيف لحقني هذا الكابوس السخيف في نومتي هذه؟؟

أخذ يتساءل بينه وبين نفسه ثم نظر بطرف عينه إلى الرجل الذي يجلس في المقعد بجانبه .. انه يشبه الرجل المزعج الذي يراه في كوابيسه ..

أمعن فيه النظر ..إن ملامحه بها شئ من الغرابة .. شئ غـــير مريح .. لكن مهلا.. تذكر توفيق ان الذي كان يجلس بجانبـــه قبل ان تقلع الطائرة فتاة شابة من الهند !! لقد تذكر الآن لأنها سائلته بالانجليزية ان يعطيها حزام الأمان الخاص بها الذي كان يجلس عليه بالخطأ.

شعر الرجل بنظرات توفيق إليه فوضع الجريدة على فخذيه والتفت اليه قائلا:

- أعتذر إذا كنت قد أزعجتك ...اسمي شمس الدين .. نعم أنا لم أكن أجلس بجانبك قبل الإقلاع إذا كان هذا ما يجول في خاطرك!

ثم مد له يده ليصافحه .. كان ملمس كفه شديد الخـــشونة تتعارض مع ما في مظهره من وقار! ككف عامل يعمـــل في مهنة شاقة .. أو كيد حداد أو ! لم يـــرد عقلـــه البـــاطن ان يضيف المهنة الأخيرة إلى استنتاجاته .. *او كيد حانوتي* !!

- نعم كانت هناك فتاة من الهند!

- أنظر، انها تجلس في الجانب الأخر بجانب زوجها .. لقد استأذنتني في تبادل المقاعد فلم أمانع أنـــت تعـــرف مـــوظفي خطوط الطيران يقترفون مثل تلك الأخطاء السخيفة في اختيار المقاعد للركاب. لقد أجلسوها في الطرف الأخر من الطـــائرة

بعيد عن زوجها.. أظنك كنت مستغرقا في النوم لدرجة إنسك لم تشعر بحركتنا.

قالها بضحكة تشبه ضحكة الشخصيات الشريرة في الأفلام المصرية القديمة..

- نعم أعتقد ذلك.. أنا د/ توفيق حامد أدرس التاريخ بجامعة القاهرة.

- تشرفت بك يا د/توفيق لا تتعجب من مظهري فأنا لي جذور مصرية وكما تسمع أتحدث المصرية بطلاقة.

- نعم .. ذلك أكيد!

- والدي من الهند .. وأقوم أنا بمتابعة أعمال العائلة ما بين مصر والهند ..

- لابد ان ذلك مثير!

- بالتأكيد فالحضارتان متشبهتان في نواحي كثيرة .. ستلتمس ذلك بنفسك !

أصابه وجود ذلك الرجل بجانبه لسبب يجهله بشعوره بعدم الارتياح .. مثل ذلك الشعور عندما يحدق فيك شخص غريب لا تعرفه وأنت تجلس في مكان عام.. ربما يرجع هذا الشعور الى ملمس يده التي لا تتناسب مع مظهره .. ام لأنه تفاجأ

بجلوسه بجانبه! ام لأنه أيقظه من النوم ..ام لأنه فيه شبه كـــبير من الحانوتي الذي يظهر له في أحلامه !

أراد ان يستمر الرجل في حواره لكن توفيق قاطعه قائلا ان عليه ان يذهب الى دورة المياه!

في أثناء انتظاره لدوره أمام الباب وجد الفتاه التي كانـــت تجلس بجانبه في بداية الرحلة تنتظر دورها هي الأخرى.. رأتــه فابتسمت له ابتسامه خفيفة وبادله هو نفس الابتسامة .. اخذ ينظر من النافذة الموجودة بجانب باب الطـــوارئ إلى الظــلام الدامس الذي يحيط الطائرة من الخارج .. كأنها تطير في نفـــق مظلم ليس له نهاية ..

وجد ان الفتاة تنظر له وكأنها تريد ان تسأله عن شئ.. او كأنها كانت تشعر بالملل .. فقرر هو ان يستغل تلك الـــدقائق الى ان يأتي دوره بالحديث معها قليلا فاتحها بالحوار قائلا:

- إنها رحلة طويلة !

- نعم .. أنا لا أحب ركوب الطائرات !

- أنا مثلك !! لكن لم أجد أية قطارات شاغرة ذاهبة مـــن القاهرة الى الهند!

ابتسمت له بنفس الابتسامة ثم قالت :

- نعم بالتأكيد .. كنت ستجدني انا الأخـــرى في ذلـــك القطار .

بادرها بنفس الابتسامة ثم أكملت حديثها:

- جميل ان يجتمع المرء بالـــصدفة مـــع شـــخص يعرفـــه وخصوصا اذا كان فوق السحاب على ارتفاع آلاف الأمتار!

- بالتأكيد! هل قابلت احد تعرفيه !

نظرت اليه بتعجب ثم أردفت:

- انا أتكلم عنك !

- ماذا تعنين؟

- الشخص الذي يجلس بجانبك الم يكن احد تلاميـــذك في الجامعة؟

لم ينتبه جيدا الى كلامها فقد لفت نظرة في تلك اللحظـــة الشخص الذي يجلس بجانبه الذي تتحدث عنه وهـــو يقـــف ويفتح خزانة الحقائب من فوقه .. لكنه وجد رأســـه تـــستدير لتنظر إلى عينه مباشرة وكأنه يحاول ان يقرأ ما تقوله شفتاهم!.

- اعتقد انك تظنين اني شخص اخر .. انا الذي كنت..

قاطعته قائله:

- انا اعرف من أنت .. كنت تجلس بجانبي في بداية الرحلة.. ثم استغرقت أنت في النوم ووجدت هذا الشخص يقف بجانب كرسيك في الممر يستئذني في ان نبدل مقاعدنا قائلا انه يعرفك من أيام دراسته في الجامعة ويريد ان يفاجئك عندما تستيقظ وتجده يجلس بجانبك! تعجبت حتى انك لم تشعر بحديثنا او حركتنا.. لكنه كان مهذب فوافقت .. عموما انا لا أحب الجلوس بجانب النافذة فذلك يصيبني أكثر بالخوف.

أخذت الطائرة مطب هوائي سقط معه قلب توفيق الى الأرض مرة أخرى بعد أخر كلمة سمعها من الفتاة ... شعر بتلك الكلمة تهز جسده .. "الخوف"

لحظات مرت بدون ان يبدو عليه أي رد فعل من حديثها وكأنها تقف أمام تمثال من الشمع .. هل يوافقها على كلامها بأن هذا الرجل الذي يجلس بجانبه هو احد طلابه ام يقول لها ان هذا الرجل ادعى انها هي من استئذنته لتجلس بجانب زوجها ! ام يقول انه شبيه الرجل العجوز الذي يظهر له في كوابيسه بالجاروف! ام يسألها كيف عرف انه مدرس بالجامعة!

إنه يجلس بجانب الحانوتي!

لكنها استرسلت في حديثها قائلة:

- لقد حدث لي نفس الشيء عدة مرات عندما كنت أسافر من قبل مع أصدقاء لي في الدراسة او زملاء سابقين في العمل.. حتى ان احد صديقاتي قالت لي إنني سألتقي بزوج المستقبل في احد رحلاتي!

ابتسمت بعد أن أنهت كلامها.. انتظرت ان يـــرد عليهـــا بابتسامة لكن شفاه كانت موصدة كالباب.

- إذن أنت غير متزوجة!

ضحكت ثم قالت بحماس :

- وما الذي جعلك تظن أني كذلك! أبسبب هذا الخاتم ! انا استخدمه لأبعد الفضوليين عني.

اراد ان يقول لها " انه الرجل الذي يجلس بجانبي .. الـــذي ينتظرني الان في المقعد الذي ادعى انك استئذنته في الجلـــوس مكانه.. الذي اشعر بعينيه تحدق فينا الآن ونحن نتحدث"

- لا شئ .. أعتذر عن هذا السؤال .. أتمنى الا أكون واحد منهم!

- لا داعي للاعتذار..

سكتت قليلا ثم قالت:

- هل أنت على ما يرام ؟ إن انفك ينزف!

وضع توفيق يده على انفه التي بدء يسيل منها الدم بغـــزارة وكأنه من صنبور مياه... أخرجت منديل من حقيبتها وناولته اياه .. كوره ووضعه بسرعة على فتحة انفه وسرعان ما تحول المنديل الورقي الى اللون الاحمر، كأنه يمسك بحبة طمـــاطم في يده.. أشارت عليه ان يرفع رأسه للخلف ليوقف مـــن ســـيل الدماء المتدفقة ..

ارتكز بيده على باب الطوارئ .. ورفع رأسه للخلـــف.. أعطته منديل جديد فوضعه مع الأخر ثم أســـرعت إلى اقـــرب مضيفة.. بدء اللون الأحمر الذي يسيل من انفـــه يتحـــول إلى اللون الزهري .. وبدأ الدوار الذي أصاب رأسه فجأة يهـــدأ قليلا.

رجعت ومعها المضيفة التي أخذت تسأله عن بعض الأسئلة العامة عن صحته .. وهو يؤكد لها ان صحته على أحسن حال وانه في العادة لا يشكو من أي شئ .. وان مقياس ضغطه بخير. أعطته بعض العصير .. ثم نصحته ان يرجع الى مقعده .

" هذا هو الشيء الأخير الذي أريده من العالم الآن ان ارجع إلى مقعدي " قال لنفسه .. ثم قال لها:

- سأدخل إلى دورة المياه أولا..

انتظر خروج الشخص الذي كان يشغل الحمام .. وبــدء الناس الذين تجمعوا من حوله يرجعون الى مقاعـــدهم بعــد ان شفوا رغبة الفضول لديهم ... فالطائرة كالقرية الصغيرة ما ان يعطس احدهم فيها حتى يعرف الجميع.

- هل أنت بخير الآن؟

سألته الفتاة:

- أعتقد ذلك.. إنها المرة الأولى .. لا أعرف لماذا حــدث هذا .. ربما الموضوع له علاقة بالضغط في الطائرة .. إنها المــرة الأولى لي أيضا في ركوب هذا الاختراع"

او ربما له علاقة بالرجل الغريب الذي يجلس بجانبــك.. الم ترى نظراته لك وانت تترف؟؟ كنت تشعر إنها تخترق جسدك رغم انك لم تجرئ ان تنظر ناحيته .. جاوبه جزء من عقل ..

- انا سعيدة انك بخير .. لقد أخفتني قليلا.. انا لا أتحمــل رؤية الدم .. اعتقد أني محظوظة لأنه لم يغشى علي .. ساعتها كانت ستتجه النظرات إلي انا بسخرية ويتركوك أنت..

- ربما كان ذلك افضل ..

ضحكت ..

- أنا اعتذر لم أعني إنه كان من الأفضل أن يغشى عليك .. أعني أن تتجه الأنظار بعيدا عني ..

- لا عليك .. أنا فهمت ما تقول .. أعتقد أنـــه يمكـــنني الانتظار بضعة دقائق أخرى إلى أن تنتهي أنت ..

- شكرا.. لن آخذ الكثير من الوقت.. فقط سأرش وجهي بالماء البارد .. لأنتعش.

- خذ وقتك..

دخل الحمام وأغلق الباب من خلفه بالمزلاج فتغيرت اللوحة الصغيرة بالخارج على الباب إلى "مشغول".

ألقى نظرة سريعة على الحمام من الـــداخل ثم انفجـــر في الضحك .. كأنه "ماكيت" أو ربما حمام صغير للدمى ..

نظر إلى وجهه في المرآة .. عينـــه المحمرتـــان .. علامـــات الإجهاد التي تظهر كخط أسود عريض تحت عينه .. إنها الليلة الثالثة أو الرابعة التي لم تذق عينه فيهم النوم إلا لساعات قليلـــة استيقظ منها على ذلك الكابوس المزعج.. عليه أن ينام علـــى الأقل لمدة ٦ ساعات حتى يستطيع التركيز أثناء لقاءه بالطلبـــة الهنود غدا.. فتح صنبور المياه فتدفقت المياه بـــبطء .. وضـــع

كفيه ليملأ المياه فيهم ثم انحنى ناحية الحوض بجسمه .. والقـــى بالماء الفاتر على وجهه بحركة سريعة..

سمع صوت من خلفه يهمس له في الأذن الـيمنى بـصوت كأنه يخرج من أعماق قبر..

- " انتعششششش" .. " انتعشششششش" .. انـا ايضا أحب أن انتعشششش"

رفع رأسه مفزوعا ونظر إلى المرآة .. لجزء من الثانية اعتقد أنه في حلم.. مازال يحلم في مقعده .. لكن تفاصـيل الوجـه الذي رآه في المرآة يقف من خلفه في حمام الطـائرة الـذي لا يتعدى ١X١ متر كان واضحا إلى حد مخيف .. كانـت أول مرة يرى الرجل العجوز في النور بعيد عن القبر الذي يحفره في أحلامه .. كان وجهه مليء بالغضب وعينه كأنها حفرتان من نار، تشتعلان.. ثم ابتسم له هذا الوجه فظهرت خلف شـفتيه أسنان سوداء .. لا لم تكن أسنان .. فلا توجد مـسافة بـين السنة والأخرى.. كانت كأنها لجام حصان مصنوع من الجلـد الأسود المتهرئ .. في تلك الثواني لم يتحرك جسده .. غاصت عيناه تتفحص ملامح وجهه الرجل في المرآة التي بدت كنحت محفور في احد الكهوف المهجورة .. ثم ظهر له في المرآة خلف

أذنه اليسرى شكل أداة جديدة .. أداة معروفة لعقله الباطن .. ارتبطت في ذهنه مع الرجل العجوز ..

أراد عقله في تلك اللحظة ان يسترجع اسم هــذه الأداة .. اهو "الصاروخ !"، "الشادوف!"، المانجروف !!

"الجاروف!!" نعم انه الجاروف!!

ثم شاهد هذه الأداة وهي تتحرك .. ثم لم تعـد تـنعكس صورهَا في المرآة .. لحظتها عاد إلى وعيه .. لم يعـد يهمـه معرفة اسم الأداة لأنه علم إنها تتجه نحو رأسه من الخلف!

ثم أظلمت الدنيا من حوله!!!

استيقظ .. فوجد نفسه ليس في مقعده بجانب النافذة بل في المقعد الأخر بجانب الممر.. والكرسي الأخـر كـان خاليـا. استيقظ على الم مبرح في مؤخرة رأسه .. وضع رأسـه علـى موضع الألم .. شاش و قطن و ضمادة .. تبرز من رأسـه .. حاول ان يتذكر ما حصل له .. لكن أخر ما تـذكره كـان الجاروف .. أعاد المشهد في ذاكرته مرة أخرى كأنه يـشاهد المنظر من بعيد .. هو يقف أمام المرآة ومن خلفه يظهر ظهـر الرجل العجوز الذي راه وهو يرفع الجاروف يلوح به للخلف كمضرب "بيسبول" ثم ينطلق به نحو الجزء الأسفل من رأسه..

شعر بألم حاد أثناء تذكره ذلك المشهد .. لا شيء يتذكره بعد ذلك .. مجرد سواد.. غرفة مظلمة..

جفناه ثقيلان ربما حقنوه بمخدر للألم .. إنه يشعر برغبة في دخول الحمام .. وضع يده عند موضع الألم .. نظر فوقه فوجد إن إشارة ربط الأحزمة قد أضيئت .. ربمـــا بعـــض المطبـــات الجوية.. *أو ربما عطل ما* !! إنهم لا يخبرونـــك في العـــادة إذا حدث أي عطل.. حتى اذا توقفت أحد محركات الطائرة عـــن العمل .. هذا ما يعرفه جيداً من بعض المقالات التي قرائها على الانترنت من يومان عندما كان يبحث عن طرق لتفادي فوبيا الطيران أثناء هذه الرحلة المشئومة!

نظر حوله فوجد نظرات الذعر قد ملئـــت عـــين بعـــض الركاب، والبعض الأخر كان مشغول بقراءة المجلة التي يضعونها في ظهر الكرسي الأمامي والتي قلب محتوياتها قبل إقلاع الطائرة فوجد انها لا تحتوى على اية مقال مثير .. تذكر ان الرجـــل في الكرسي بجانبه مازال غائبا .. هل كل هـــذا الوقـــت في دورة المياه؟

سمع بعض النغمات التي تعقب تحـــدث قائـــد الطـــائرة في الإذاعة الداخلية:

" لسلامتكم نرجو العودة إلى مقاعدكم وربط حزام الأمان لمرور الطائرة ببعض المطبات الجوية إلى ان تطفئ علامة ربـــط الحزام و شك ...."

قبل أن يستكمل قائد الطائرة كلامه في الإذاعة الداخلية للطائرة قاطعه صوت جهوري .. " لا تصدقوا كلام هذا الكذاب .. الطائرة تحت كامل سيطرتي .. لا أعتقد أن تلك القطعة التي يسمونها حزام الأمان ستجدي أي نفع عندما نصطدم بالأرض في أي لحظة من الآن!"

ثم انقطع الإرسال.

مرت لحظات صمت كالدهر على جميع الركاب وكأن الركاب في دور للعبادة .. حتى الأطفال الصغار لاذوا بالصمت كأنهم فهموا كلمات خاطف الطائرة .. ثم انفجر بعدها بلحظات البعض في البكاء والآخرين في الهمهمة ..

ثقلت أنفاس توفيق ان نبرة صوت خاطف الطائرة مألوف لأذنه .. توقف عقله للحظات ثم عاد إليه إدراكه كالبرق.. "يا الله انه الراكب الذي يجلس بجانبي .. الذي يشبه الرجل العجوز في كوابيسي! كنت أتبادل الحديث مع خاطف الطائرة طوال هذا الوقت!".

نهض أحد الركاب الهنود وقال بانجليزية حاول أن يصطنع فيها اللهجة البريطانية وهو يهز رأسه يمينا ويسارا :

- أخواتي الأعزاء .. نرجو ان نلتزم بالهدوء قليلا حتى نستطيع التفكير.

رد عليه شخص آخر عربي بعصبية بلغة إنجليزية متلعثمة:

- تفكر في ماذا.. نحن مخطوفون في طـائرة .. ولـيس في أتوبيس سياحي.. أم إنك تريد أن تلعب دور أميتاب بتـشان وتحررنا جميعا .

- أنت تسخر من كلامي أيها العربي.. أنا أعرفكم أكثر من معرفتي بأهل بلدي .. فأنتم تحبون الجلوس و المشاهدة فقط !

رد آخر:

- يا أعزائي .. لا داعي للمشاحنات الآن .. لازلنا لا نعلم طلبات الخاطف..أرجوكم يجب أن نتكاتف مع بعضنا البعض.

أومأ الآخرين برأسهم دليل على موافقتهم لهذا الكلام. بينما أخذت بعض السيدات المحجبات بترتيل آيات مـن القـران، والأخريات تهدئ من روع أطفالهن ..

اخذ توفيق يتساءل.. ماذا يريد الخاطف .. انه لم يبدو عليه أي شيء غير طبيعي عدا..

(عدا أنه نفس الشخص الذي يظهر لك في كوابيسك، إنه هنا ليقتلك ويقتل كل من في الطائرة... تقول لماذا؟ وكيف لي أن أعرف ربما ستأتيك الإجابة بعـد لحظـات.. منـه هـو شخصيا؟)

فجأة وجد نفسه يقول:

- "موبايل" ... أريد "موبايل" ..

ثم سأل من كانوا يجلسون بجانبه على الجهة الأخرى:

- أعرني "موبايلك" سأتصل بالشرطة.. أنا جاري لــواء في الداخلية سيفعل اللازم .. سيخرجنا من هــذا المــأزق.. أنــا متأكد.

رنت الضحكات في الطائرة كتلك التي نسمعها في المسرح بعد أن ينتهي الممثل من إلقاء "قفشه" وقال أحدهم:

- موبايل ... هاها يريد موبايل .. تأخذ موبايلي .. علــى شرط أن ترن له رنة واحدة وتغلق الخط.. وهو يعيد الاتــصال بك.. لأني كارت..

قال آخر:

- خذ موبايلي .. أنا خط لكن أسرع أرجــوك في إيجــاد النجدة.. تعرف موقعنا.. دعني أساعدك .. ابلغ صديقك اللواء إننا الآن فوق باكستان.. عند ناصية السحابة ال ١٥ عشر بعد الألف.. بعدها دعه ينعطف يمينا سيجدنا هناك..

انفجر الركاب مرة أخرى في الضحك.. أما توفيــق فلــم يتوقف عن التحدث عن الموبايل الذي يريده..

- "انتينال" .. أريد "انتينال".. عندي مغص .. لابد إنه الطعام الذي تناولناه منذ قليل.

ثم أخذ يصيح:

- "أنتينال" .. لابد ان أحدكم معه "أنتينال"..

ثم سكت الجميع فجأة بعد أن رنت النغمات التي تسبق الإذاعة الداخلية في الطائرة.. لابد أن هذا المعتوه سيبدأ في فرض شروطه على الموجودين..

عدة ثواني مرّت بعد انتهاء النغمات بدون أن يتحدث أحد. فقد صوت أنفاس ثقيلة في الميكرفون الخاص بقائد الطائرة .. ثم حشرجة.. عندها عاد الجميع إلى رعبهم السابق وكأن المسرحية الفكاهية التي كانوا يضحكون عليها منذ قليل أصبحت الآن مسرحية تراجيدية.. درامية جدا ستنتهي بموت جميع طاقم الممثلين بما فيهم طاقم ما وراء الكاميرات..

بدء الرجل بصوته العميق يقول:

- أنا لا أريد أرواحكم الرخيصة.. كفاكم عويل! هناك روح شخص واحد أريدها ان تموت من الخوف والفزع قبل أن تموت إكلينيكيا.. هناك قنبلة مزروعة تحت الراكب توفيق

حامد الذي يجلس على المقعد رقم ٤٧ A والآن على ٤٧ B هذه القنبلة ستنفجر في الجميع إذا...

قاطع توفيق الصمت:

- موبايل ... أرجوكم يا جماعة الخير .. موبايل

- اخرس أيها الأحمق إنه يتحدث عنك!

- "انتينال"!

تابع الرجل كلامه عبر السماعات المنتشرة في سقف الطائرة:

- هذه القنبلة ستنفجر إذا حاول هذا الأبله أن يغادر مقعده.. إن سلامتكم بين يديه.. كما قلت، لا تهمني حياتكم في شيء .. لقد اتفقت مع قائد الطائرة على...

- "انتينال".. أرجوك، بلغ المضيفة إني أريد "انتينال".. لقد ضغطت على زر استدعاء المضيفات منذ ساعة و لم يأتيني أحد!

قام أحد الركاب بالتوجه إلى توفيق وإلقاء لكمة على وجهه لعلّها توقف الهراء الذي يخرج من فمه.. فأيّده البعض .. بينما صرخ فيه الآخرون بالابتعاد عنه فورا حتى لا يتسبب في موتهم جميعا..

- اتفقت مع قائد الطائرة على الهبوط الاضطراري في مطار لاهور وذلك بعد ١٠ دقائق من الآن.. بعد الهبوط سيقوم طاقم الطائرة بإخراجكم جميعا من الطائرة سالمين .. وسأبقى مع صديقي لوحدنا لتصفية حسابات قديمة! لا داعي لأذكركم، ان الشخص الذي يجلس على المقعد رقم ٤٧ B حياتكم جميعا تتوقف على اى حركة حمقاء قد يقوم بها!

انقطع حديث الرجل بصوت الميكروفون وهو يهوى على سطح صلب.. ثم بدأت الطائرة تهوى الى الأرض بسرعة رهيبة وكأنها نجم يهوي من السماء مخترقا الغلاف الجوي لينفجر بسطح الأرض.. سرعة جعلت الجميع يشهقون بصوت واحد... بينما ارتفعت صوت محركات الطائرة والرياح تندفع خلالهم..

- المغص.. لا انتينال .. لا موبيل.. انتم بالفعل أشخاص مزعجين غير ودودين.. يجب على ان اذهب لدورة المياه.. لم اعد استطيع .. ستنفجر أمعائي ..

وقف فجأة من كرسيه .. قبل ان يوقفه احدهم .. وقف كالجندي الجاهز للدفاع عن وطنه.. وقف .. بعدها دوى انفجار أصاب كل الاذان بالصم وأخذت الأرواح والأجساد تتناثر بين السحاب الأبيض!

تتبع..

المحتويات